الفصل الاول

﴿ حدّاد الملك ﴾ (١)

تركنا الملك في الجزء الماضي عائدًا مع الملكة والبلاط من فرساليا الى باريز بعد هجوم الشعب على قصر فرساليا وقتله بعض حراسه · فلنعد الآن الى باريز لنشهد دخوله اليها

وكان المجمع الوطني في فرساليا لما علم بعزم الملك على السفر الى باريز اعلن ان المجمع تابع للملك فحيث يكون الملك يجب ان يكون المجمع ولذلك ركب اعضاؤه المائتان مركبات وراء مركبات البلاط وعادوا معه الى باريز

اما شعب باريز فلما بلغه هذا الخبر ارتاح اليه كل الارتياح لانه كان بمثابة فوز عظيم له فضلاً عن كونه صار يؤمل ان تنقضي المجاعة الهائلة التي كانت في باريز اذ حسب ان وجود الملك بينه كافٍ لازالة المجاعة

فما اشد الشعوب سذاجة واكثرها تعلقاً بالاوهام

ولذلك اخذ الشعب يتجمهر تجمهرًا هائلاً لمشاهدة دخول الملك الى عاصمته · وكان الوقت صباحاً واليوم ٦ اكتوبر من سنة ١٧٨٩

---

(١) حداد الملك — كان الملك لويس السادس عشر الذي نحكي هنا قصته مولعاً بالحداة والنجارة · فاذا قلنا حداد الملك اردنا بذلك الحداد الذي كان يعلمه الحدادة فيجدر بالقارىء ان يطالع الفصل التالي بامعان ليرى فيه شهادة المعلم « كامين » لتلميذه لويس السادس عشر · ولا ريب ان روسو الذي كان غير ميال الى الملوك ولكن شديد الرغبة في ان يتعلم كل انسان حرفة يديوية لو علم بان الملك لويس السادس عشر كان اكثر ميلاً الى الحدادة منه الى المُلك لاصبح اكثر ميلاً الى هذا الملك بالرغم عن رخاوته وضعفه · ومما يجعل لوقائع الملك وحداده اهمية خصوصية ان شهادة هذا الحداد كانت من

وكان في جملة القادمين الى حانة على الطريق التي سيمر الملك فيها تدعى حانة « بون سفر » رجل يمشي بخطى واسعة وهو مفكر ومطرق الى الارض و بيده بندقية · ولكن هذه البندقية كانت من اجود انواعها وعليها مكتوب اسم « لكلير » الذي كان يصنع سلاح النبلاء في ذلك الزمان لشهرته بصنع السلاح · وكان الرجل يقبض عليها بيد قوية ضخمة ماطخة بسواد مما يدل على انها اعتادت عرك الحديد والعمل به ولذلك كان البون واضحاً بين تلك البندقية اللطيفة الثمينة واليد الضخمة التي تقبض عليها

ولكن في ايام الثورات الهائلة لا تكون البندقيات اللطيفة الثمينة في الايدي اللطيفة البيضاء دائماً · بل انها اكثر ما تكون في الايدي الضخمة القوية

ولما وصل هذا الرجل الى الحانة المذكورة دخل اليها فوجدها خالية خاوية فجلس على مائدة هناك واخذ ينظر الى الباب كانه يتوقع قدوم قادم عليه · ولكنه لم ينتظر طويلاً · فانه ما لبث ان دخل عليه رجل يقارنه في العمر اي انه في نحو الاربعين غير ان منظره وهيئة وجهه يدلان على ما في نفسه من الخشونة والجهل والفساد · فجلس هذا القادم الجديد على مقعد في الحانة بازاء الرجل الاول

ولكنه لم يستقر به المكان حتى التفت اليه الرجل صاحب البندقية وقال ضاحكاً — البرد قارس ايها الرفيق والملك لا يصل الا بعد مدة فهل لك ان نشرب معاً كأساً من الخمر

فحسب الرجل الثاني ان ذلك الرجل يخاطب انساناً غيره ولكنه رآه ناظراً اليه فسأله اتخاطبني انا · فاجاب نعم اخاطبك انت لانني قد ضجرت من الوحدة في هذه القهوة ومن طبعي الضجر دائماً فهل تشاركني في زجاجة من الخمر

فاجاب الرجل كيف لا ولك الفضل ايضاً · ثم قام وانحرف نحوه وجلس معه

الاسباب التي حملت المحكمة العليا على الحكم على الملك · ذلك ان هذا الحداد قد شهد ان رجال الملك دعوه الى قصره ليعمل له خزانة حديدية سرية كما ترى في هذا الفصل ثم انهم بعد اتمـام عمله سقوه سماً لكي لا يبقى احد عارفاً بوجود هذه الخزانة · وسيرد الكلام عن ذلك بالتفصيل · وقد نشرت مجلة المقتطف في احد اجزائها الاخيرة على ما نذكر مقالة لاحد الكتاب الادباء عنوانها « صفحة من تاريخ فرنسا » وموضوعها هذه الحادثة التي حدثت بين الملك وحداده فالذين قرأوا تلك المقالة يجدون لذة خاصة في الفصل التالي والفصول التي تتلوه بهذا الموضوع

فاحضر صاحب الحانة زجاجة من الخمر وصب كاسين للرجلين فتناول كل واحد كاسه فقال الرجل الاول « نشرب نخب الامة » فنظر اليه الرجل الثاني وقال باسماً . احسنت نعم نشرب نخب الامة

ذلك ان اسم الامة قد شغل في ذلك الزمان كل شيء حتى الحانات فصاروا لا يشربون الا نخب الامة بعد ان كانوا يشربون نخب الملك . والسبب في ذلك ان السلطة والسيادة كانتا قد انتقلتا من الملك الى الامة

وبعد شرب الكاسين التفت الرجل الاول الى الثاني وساله . وهل انت مشتاق كثيرًا الى رؤية الملك حتى تبكر الى مشاهدته

فهزَّ الرجل الثاني كتفيه وقال له انا لا اشتاق الى رؤية الملك . فقال الرجل الاول ضاحكاً ولماذا . قال لانني قادر على رؤيته كلما اردت . فاظهر الرجل الاستغراب ثم قال عجباً وكيف ذلك فان اعظم الناس لا يستطيعون مشاهدة الملك كلما ارادوا . فقال ذلك الرجل ضاحكاً نعم لان اولئك العظماء الذين تعنيهم ليسوا معلمين للملك . فازداد الرجل اظهارًا لدهشته وقال . وماذا تعني بهذا القول هل انت معلم الملك . فاجاب نعم انا معلمه فقال وماذا تعلمه . قال لا اعلمه الآن ولكنني علمته منذ بضعة اعوام قال وماذا علمته . قال علمته صناعة الحدادة

فما لفظ الرجل الثاني هذه الكلمة حتى نهض الرجل الاول قائماً وانحنى باحترام قائلاً هل انا متشرف الآن بمخاطبة المعلم « كامين » — فضحك الرجل ولكنه سرَّ بهذا الاكرام واجاب نعم انا « كامين » الحداد اكبر الحدادين ومعلم المعلمين

فجلس الرجل الاول وهو يقول انك تعذرني اذا كنت لم اعرفك لاول وهلة يامسيو كامين على انني مسرور بهذا الاتفاق الذي اتاح لي شرف معرفتك . فحدثني الآن كيف كنت تعلم الملك لا ريب ان تعليمه صعب ومضجر لانك في كل كلمة يجب ان تقول له جلالتك وجلالتك . ثم صب كاسين من الزجاجة ايضاً . فضحك كامين وقال . لا لا . عندي في المعمل لا يوجد جلالتك ولا عظمتك فانني كنت اعامله كما اعامل رجلاً مثلي يريد ان يتعلم صناعتي . وهو رجل بسيط القلب لين العريكة فكان يرضى مني بكل شيء . كنت اقول له اصنعوا هذا . لا تصنعوا هذا . اضربوا هنا لا تضربوا هناك . امسكوا كذا لا تمسكوا هكذا . نعم انني كنت اخاطبه بالجمع وهو يخاطبني بالمفرد ولكنني ما كنت اقول له لا جلالتك ولا عظمتك لانه في معملي رجل مثلي ولو لم يكن ملكاً لكان دوني لان التلميذ

دون معلمه

فقال الرجل الاول نعم ولكنك في وقت الغذاء كنت ولا بد تذهب الى مائدة الخدامين فتاكل عليها والملك يذهب الى مائدته

فاجاب الرجل بنزق لا لا فانه كان يلذ له ان ياكل معي من الصحن الذي آكل منه لان ذلك يكفيه كما كان يقول عناء غسل يديه في غدائه مع الملكة ولذلك كان يفضل مائدتي في المعمل على مائدتها . وكانت الملكة تاتيه احياناً فترى يديه الملطختين باثار الحديد فتقول له باشمئزاز « يداك قذرتان ياذا الجلال » وقد نسيت ان الذي يشتغل بالحدادة لا يمكن ان يكون نظيف اليدين

فقال الرجل الاول اترك هذا فانه يستدر الدموع وقل لي هل كان الملك لا يضجر من صناعة الحدادة . فاجاب المعلم كامين . كلا كلا وقد عهدته انه لا يكون مسروراً كل السرور الا في معمل الحدادة وفي غرفة الجوغرافيا لما يبحث في خرائطه واوراقها وفي غرفة المكتبة لما يحادث امينها . ولكن المسيو ناكار كان لا يترك له وقتاً طويلاً لذلك بل ياتيه باكداس من الورق تضيع وقته وتسبب له الانقباض والحزن . فياليته خصص كل وقته بصناعة الحدادة فانه كان قد برع فيها براعة تفوق براعة المعلمين فيها لانه مستعد لهذه الصناعة كل الاستعداد خلافاً لصناعة الملك فانه بسيط القلب شريف النفس والاخلاق ولذلك لم يبرع فيها

فقال الرجل الاول لا بد انك صرت غنياً لان الذي يعاشر الملوك يغتني من خيراتهم . فاجاب المعلم « كامين » لا ازال كما كنت فقيراً وقد اصبح لويس السادس عشر مثلي لانه كان يعطي نصف ماله للفقراء والنصف الثاني للاغنياء ولذلك افتقر ولم يصنع لامثالي شيئاً . وقد كانت تحدثه نفسه ان يخفف نفقات بلاطه فانقص يوماً من الايام راتب المسيو كوانيي فجاء هذا الرجل وانتظره امام باب المعمل فما خرج الملك حتى عاد مسرعاً وهو اصفر اللون كالاموات فسالته ما به فاجاب ان المسيو كوانيي كاد يضربه لانه انقص راتبه فسالته ماذا صنعت فاجاب انه ابقى له راتبه كما كان خوفاً من غضبه . فتامل وقاحة هولاء النبلاء الذين يطلبون اخذ الرواتب والاموال بالقوة والغصب . ثم ان الملك في ذات يوم ابدى ملاحظة للملكة بشان ٣٠٠ الف فرنك تقبضها مدام بولينياك صديقتها . فاجابته الملكة ان هذا المبلغ يسير وجعلته بالرغم عنه عقاباً له ٥٠٠ الف فرنك . هكذا كان يعطي الملك النبلاء ابناء كوانيي وفودريل وبولينياك حتى انهم رحلوا الآن عن فرنسا وصناديقهم

طائفة بالملايين بعد ان كانوا لا يملكون شيئاً . كل ذلك دون ان يعطيني مبلغاً اكتفي به الفقر انا صديقه ورفيقه ومعلمه الذي علمه كيف يمسك المبرد والمطرقة في يده

فقال الرجل الاول ولكن لا بد انك تربح ربحاً وافراً من العمل معه بالحدادة فقال كامين ومن قال لك انني اعمل معه الآن فانني اصبحت اجتنبه لان معاشرته صارت خطراً في هذا الزمان ولا سيما بعد سقوط الباستيل . على انني لقيته مرة او مرتين منذ امد بعيد. المرة الاولى في الشوارع وكانت غاصة بالناس فاكتفى بانه سلم علي من بعيد . والمرة الثانية في طريق ساتوري فانه اوقف مركبته لما رآني وقال « صباح الخير يا كامين المسكين » وقد قالها متنهداً فاجبته يظهر من تنهدك انك غير مستريح البال فلا باس بذلك فانه عقاب لك على تركك الحدادة . فقال كيف امرأتك واولادك فاجبته بصحة جيدة وقابلية تفني كل شيء فقال لي الملك اصبر وخذ لهم مني هذه الهدية ثم مد يديه الى جميع جيوبه وفتشها كلها فلم يجد فيها غير تسع ليرات (بنتو) فتناولها واعطانيها قائلاً « يسوءني ان اقدم لك هدية حقيرة كهذه » فتامل هذا الملك الذي لا يوجد في جيبه سوى تسع ليرات

فقال الرجل الم تره منذ ذلك الحين . فاجاب كلا فقال وكيف لم تره في ليل امس حين سفره من فرساليا عائداً الى هنا فقال الحداد لانني سافرت في الساعة الثالثة بعد نصف الليل اي قبل سفره . فاظهر الرجل استغرابه وقال كيف تسافر في الساعة الثالثة فقال هذا امر حيرني انا نفسي ولا باس ان اذكره لك. فان صاحب منزل كبير في باريز دعاني مساء امس الى ان اجيء باريز واصنع له شيئاً في منزله . ولكنه اشترط علي ان يستر عيني حين دخولي الى المكان وخروجي منه لئلا اعرفه . اما الشيء الذي يطلب ان اصنعه فهو خزانة كبيرة حديدية سرية توضع في جدار وتغطى بقطعة من الخشب مدهونة بلون الجدار حتى اذا اقفلت الخزانة لم يبن لها في الجدار اثر . فرضيت بذلك لانهم عرضوا علي اجرة وافرة وانا محتاج الى المال من اجل عائلتي فجئت معهم امس في الساعة الثالثة . فلما وصلت الى احد الشوارع صادفني رجل وسالني أانت المعلم كامين قلت له نعم فتناول منديلاً وربط به عيني ثم سار بي الى المنزل المذكور وادخلني الى الغرفة التي يريد وضع الخزانة في جدارها فرفع الرباط عن عيني واراني العمل الذي يجب ان اعمله فما زلت اعمل حتى الصباح ففرغت منه فانقدوني مبلغاً وافراً من الذهب ثم اخرجوني مربوط العينين كما ادخلوني

وكان الرجل الاول يسمع هذا الحديث وهو مهتم به في نفسه اشد اهتمام وان كان لم

يظهر على وجهه شيء من علائم الاهتمام به . فلما سكت كامين ساله افلم تسترق نظرة من وراء الرباط وتنظر الى طريق المنزل الذي دخلته . فاجاب كامين ضاحكاً لا اكتمك انني استرقت نظرًا فانني وانا عائد من المنزل عثرت بدرجة فكدت اسقط فاغتنمت هذه الفرصة وزحزحت الرباط . فقال الرجل باهتمام . فماذا ابصرت . قال ابصرت صفوفاً واسعة طويلة من الاشجار. فقال الرجل ان هذا يدل على ان المنزل قائم في شارع كبير فاجاب الحداد ذلك محتمل

ولكن ما اتى كامين على هذا الكلام حتى دخل ثلاثة اشخاص الى الحانة وجلسوا امام المائدة الذي كان كامين وصاحبه جالسين اليها . فسكتا وحانت منهما التفاتة فسال كامين من هم هذان الرجلان والمرأة . فقال . الرجل الاول هو جان بول مارات (١) فسال كامين والاحدب الثاني . فاجاب هو بروسبير فريه . فقال كامين والمراة الجالسة بينهما . فضحك الرجل الاول وقال اذا سميتها لك لم تصدقني فقال كامين ومن هي . فاجاب الرجل هي « الدوق دكويلون في زي امراة »

ولكن ما لفظ الرجل هذه الكلمة حتى ارتعدت فرائص المراة والتفتت الى الرجل الذي سماها والتفت الرجلان الى تلك الجهة معها . فوقعت ابصارهم على الرجل الذي يجالس كامين فدهشوا واستعدوا للقيام على الاقدام قيام اكرام واحترام من مرؤوس الى رئيسه . فوضع الرجل الاول اصبعه على فمه مشيرًا لهم بالسكوت والجلوس ثم نهض مع كامين وخرج من الحانة كانه وقف منه على ما كان يجب الوقوف عليه

وفي خروجه من الحانة ابصر الشعب مضطربًا يركض وراء رجل يدعى المزين ليونار واثنان من الرجال يحملان راسين بشريين من رؤوس الحرس الذين قُتلوا في فرساليا وغرضهم ان يجعلوا ليونار يمشط شعر الراسين ويزينهما كما يزين رؤوس الاحياء . وكان هذا الجمهور الذي يحمل الراسين طليعة الشعب العظيم القادم بالملك من فرساليا

---

(١) مارات — انظر نهضة الاسد الجزء الاول الصفحة ٥٢

الفصل الثانی

﴿ كاليوسترو الرجل الهائل ﴾

ولم تنقض مدة يسيرة حتى وصل موكب الملك الى باريز ووراءه مركبات اعضاء المجمع الوطني · وكان الملك هادئاً جامداً في مركبته والملكة شامخة الراس في مركبتها تحمل بين يديها ولي عهدها و بازاءها الدكتور جيلبار يمشي على قدميه بازاء باب المركبة· اما بيلوفانه بقي مع الكونت دي شارني في فرساليا لدفن جثة جورج · واما اندري امراة الكونت دي شارني فانها كانت جالسة في مركبتها وراء الملكة وهي مبهوتة جامدة غير ملتفتة الى الحركات الهائلة التي كانت تجري حولها كانها تمثال من رخام ناصع البياض يزيده اسوداد الشعب من حوله جمالاً وبياضاً · الا ان عينيها كانت تبرقان وترعدان كلما وقعتا على سبيل الاتفاق على عيني الدكتور جيلبار الذي كان سائراً بازاء مركبة الملكة

وكان الشعب يهتف ملء رئتيه « فليحيَ لا فاييت فليحيَ ميرابو » كأنَّ الملك غير موجود في ذلك الموكب اوكأن لافاييت وميرابو هما الملكان الحقيقيان

اما لافاييت فانه كان سائراً على جواده امام مركبة الملك وسيفه مصلت في يمينه وهو يحيي الشعب به و يرفع قبعته · واما ميرابو فانه كان جالساً في احدى المركبات التي كانت تقل اعضاء المجلس الوطني وقد جعل مجلسه السادس في المركبة ليكون قرب النافذة طلباً للهواء اللازم لرئتيه الواسعتين · وكان يُخرج راسه من نافذة المركبة ليشاهد الشعب كلما صرخ الشعب «فليحيَ ميرابو»

وكان الشعب ينشد مع ذلك الصراخ اناشيد مختلفة ويتحادث بامور كثيرة · فكأن الملكة قد ثقل عليها صراخه ولا سيما هتافه لميرابو ولافاييت دون الملك فالتفتت الى جيلبار السائر امام مركبتها وسالته متهكمة · ماذا يقول شعبك ايها الدكتور

فعض الدكتور جيلبار شفتيه لهذا السؤال وقال في نفسه « لا تغير هذه المراة عادتها » ثم اجابها · وا اسفاه يامولاتي ان هذا الشعب الذي تسمينه شعبي هو في الحقيقة شعبك وقد كان يهتف لك منذ سنوات اضعاف الهتاف الذي تسمعينه الآن

فقالت الملكة مستاءة من هذا الجواب · انا لا اسالك عن هذا وانما اسالك بماذا

يهتف وماذا ينشد وما هو موضوع حديثه حتى اننا نسمع له هذه الضوضاء الشديدة فاجاب الدكتور جيلبار انه يهتف « ليحيَ ميرابو ولافاييت » (١) فقالت الملكة متهكمة ولماذا يطلب الشعب ان يحيَ ميرابو ولافاييت . فقال الدكتور جيلبار يطلب الشعب ذلك وانا اطلبه معه لاننا لا ننقذ الملكية الا ببقاء هذين الرجلين واتحادهما

فقالت الملكة وقد ارادت تغيير هذا الكلام لانه كان لا يرضيها وماذا ينشد الشعب فسكت الدكتور جيلبار . فقالت لا تسكت يادكتور وصرح لي بكل شيء لانه لا يسوئني شيء . فقال الدكتور ان الشعب ينشد يامولاتي انشودة الفها وهي

ان للخبازة مالاً لا يكلفها عناء

فعبست الملكة وقالت . انا عالمة انه يلقبني الخبازة ولكني لا اعلم معنى هذين البيتين . فقال جيلبار ومعناهما ياسيدتي انك صاحبة السلطة وقادرة على الحصول على المال دون ان تتعبي فيه اي ان خزانة الدولة تحت امرك واموالها في قبضتك

فقالت الملكة وقد حولت وجهها ضجراً وما هو حديث الشعب الآن . فقال جيلبار ان الشعب يقول الآن « انه قد حصل على الخباز والخبازة وخادمهما ولذلك فانه يؤمل ان يزول الجوع الذي يعانيه »

وكانوا يعنون بالخباز الملك والخبازة الملكة وبخادمهما ولي العهد

فقالت الملكة وما هذا الكلام البارد . فقال الدكتور جيلبار . ليس هذا الكلام بارداً ياسيدتي وانما هو نكتة لا تخلو من حكمة . فان الشعب يعتقد بانه يوجد في فرساليا تجارة عظيمة بالدقيق . وهذه التجارة هي التي تحول الدقيق في اعتقاده عن باريز الى فرساليا لمنفعة الملك واتباعه . فاذا سكن الملك باريز تحولت اليها تجارة الدقيق فزالت المجاعة الهائلة التي يقاسيها الباريزيون الآن . واي شيء احسن من ان يعتقد الشعب ان الملك لا يحل بين ظهرانيه حتى تحل البركة معه فياتيه خبزه عفواً . وفي الحقيقة أليس الملوك نواباً عن الله الذي يوزع الخبز على البشر . واذا كان الملوك نواباً عن الله في توزيع الخبز فاية غرابة في ان ينتظر شعب خبزه من الملك و يطلب ان يكون ساكناً بين ظهرانيه ليكون قريباً منه فيتمكن من توزيع الخبز عليه

فحولت الملكة حينئذ نظرها عن جيلبار والغضب بادٍ في عينيها لعدم رضاها عن

(١) ميرابو ولافاييت — انظر نهضة الاسد الجزء الاول الصفحة ١٠٣ والثاني صفحة ١٧

هذا الكلام واذا باصوات ارتفعت وحركة عظيمة حدثت في الشعب المجتمع حول مركبتها فالتفت جيلبار ليرى سبب ذلك فابصر الشعب يندفع فرارًا من وجه جمهور قادم نحو الملكة وهو يحمل الرأسين اللذين مرَّ ذكرهما ليريها اياها . فصاح عند ذلك الدكتور جيلبار بالملكة مولاتي استحلفك بالله ان لا تنظري الى يمينك

ولكن الملكة كانت ممن لا يرهبهم شيء ولا يطيعون امرًا فما سمعت كلام الدكتور حتى التفتت الى اليمين فابصرت الرأسين المحمولين على رمحين فصرخت صراخًا هائلاً

غير انها ما صرخت هذا الصوت حتى انصرف نظرها عن هذا المنظر الهائل الى منظر اشد هولاً

ذلك انها وجدت في الجهة التي التفتت اليها رجلاً واقفًا ينظر اليها وهو باسم . فعرفت هذا الرجل ولذلك اصفرَّ وجهها حتى صار كوجوه الاموات وخفق قلبها وشخصت عيناها اليه كانها اصبحت عاجزة عن صرفها عنه

وكان هذا الرجل الذي احدث في الملكة هذا التاثير المخيف هو الرجل الذي حادث في الحانة الحداد «كامين» وشرب الخمر معه

اما جيلبار فقد راعه اصفرار الملكة وخوفها ولا سيما انه رآها تنظر الى جهة غير جهة الرأسين . فحقق المكان الذي كانت تنظر اليه مبهوتة خائفة ونظر اليه ايضًا

ولكنه ما وجه نظره اليه ووقع نظره على ذلك الرجل حتى اجفل جيلبار واي اجفال وحينئذ خرج من فمه ومن فم الملكة معًا هذه الكلمة

— كاليوسترو . يالله (١)

فضحك ذلك الرجل ومد يده مشيرًا باصبعه الى جيلبار اشارة معناها: تعالَ مسرعًا .

---

(١) كاليوسترو — هو الكونت كاليوسترو الذي كان له في اوربا في اواخر القرن الثامن عشر شان عظيم . وقد اختلفت الاقوال في نشأته . على انه كان يزعم انه ولد في مالطه او في المدينة وانه ساح في تركيا والنمسا وجزائر الارخبيل واسيا وافريقيا فلم يترك بقعة من الارض حتى داسها وعرف اخلاق سكانها . وكان يزعم معرفة الغيب و يدعي انه اكتشف سر تحويل المعادن الى ذهب ولذلك كان لغناه ينثر الذهب نثرًا في البلاد التي كان يسيح فيها . وقد عظمت شهرته في آخر ايامه وخشيه الناس حتى العظماء . اما النساء فكن يحسبنه الهًا لشدة تسلطه عليهن وخوفهن من افشائه اسرارهن . وكان يقول انه يجعل كل فتاة عذراء تقرأ المستقبل من نظرها الى زجاجة ماء يريها اياها . وقد كان صديقًا

واتفق ان الشعب كان يزحم مركبة الملكة في تلك الساعة فمدت الملكة يدها ودفعت جيلبار لحفظه من الزحام فحسب جيلبار ان الملكة تامره بالذهاب الى ذلك الرجل · فسار نحوه · اما الرجل فلما راى جيلبار قد قصده ترك مكانه وسار في طريقه متلفتاً من حين الى حين ليرى اذا كان الدكتور لا يزال يتبعه · واما الملكة فقد استمرت سائرة في موكب الملك وهي غائصة في بحر الافكار والتاملات

الفصل الثالث

ملكي وجمهوري

وما زال الرجل سائرًا والدكتور جيلبار يتبعه حتى وصلا الى قصر شاهق فقصد الرجل المجهول باباً صغيرًا وفتحه بمفتاح معه ثم ابقى الباب مفتوحاً لدخول ضيفه · فدخل الدكتور وراءه

فراى الدكتور نفسه في فناء واسع فصعد منه الى القصر ودخل الى قاعة مفتوحة وهي مفروشة باثمن الاثاث وافخر الفراش ولبث ينتظر فيها لان الرجل غاب عنه في القصر بعد دخوله

ولكنه ما غاب بضع دقائق حتى عاد اليه وكان قد غير ملابسه ولبس ثياباً من افخر الثياب · فلما رآه الدكتور قادماً اليه وهو باسم الثغر هرع اليه والقى نفسه بين ذراعيه قائلاً — يامعلمي · فقال الرجل وهو يضحك · لا ياجيلبار لم اعد معلمك لانك اصبحت رجلاً كبيرًا وقد عملتَ من الاعمال الكبيرة ما صيرني تلميذك وصيرك معلماً لي

حمياً للكردينال روهان الذي كان يثق بقوته ومن اجل ذلك اتهم بمسالة « عقد الملكة» وهي المسالة التي اتهم بها الكردينال · ولذلك حكم عليه بالسجن ثم بالنفي من فرنسا · وكانت الملكة ماري انطوانت تخشى شره وتريد بُعده ولذلك ارتاعت هنا لما رأته عادمن منفاه واكثر المحققين على ان هذا الرجل مشعوذ كبير يتلاعب بعقول الناس ويدجل عليهم · اما ديماس فانه يجعله رجلاً قوياً كما ترى في هذا الفصل والفصول الغريبة التي تتلوه · وقد كان كاليوسترو يتاجر بالماسونية اي انه كان يتخذها لقضاء اغراضه · ولما كان يقول عن الملوك « اننا نسقطهم » فقد كان يعني بقوله نفسه والماسونيين رفاقه · وقد انشأ في

ثم جلسا فقال جيلبار شكراً لك على هذا الثناء ولكن من ادراك بما صنعت حتى تقول هذا القول

فنظر اليه الرجل ضاحكاً وقال . الا تزال تسالني هذا السؤال كانك نسيت انني اقرأ ما في القلوب واعرف ما في الكلى . فضحك جيلبار وقال ولكني رجل مادي كما تعلم . فقال انت مادي اي انك لا تصدق الا بالبرهان فاليك البرهان . اتريد ان انص عليك ما صنعته من يوم افتراقنا الى الآن حادثة حادثة فقال جيلبار نعم اريد ذلك . فاخذ الرجل يقص عليه كلما صنعه من صغيرة وكبيرة حادثة حادثة حتى دهش الدكتور وظهرت دلائل الاستغراب على وجهه بالرغم عنه . فساله الرجل ما قولك الآن . الا تزال تسالني من يدربني بالامور فقال الدكتور اشكرك على هذه الاقوال التي قلتها لانها تدل على شديد اهتمامك بي وسؤالك عني

ثم قال الدكتور جيلبار تكلمت الآن عني فهل لك ان تتكلم عن نفسك . فقال ماذا تريد ان اقول . قال اريد ان تخبرني ماذا فعلت في السنوات الثماني الماضية التي افترقنا في اثنائها فاجاب كاليوسترو

صنعتُ ما صنعته انت اي انني كنت ادنو من الملوك والامبراطرة . ولكن الفرق بيني وبينك انك تدنو منهم لتثبتهم وتعينهم وانا ادنو منهم لاسقطهم عن عروشهم فقال جيلبار وبماذا تسقطهم فقال ذلك الرجل

اسقطهم بانني اجعلهم فلاسفة وعلماء . ولا اكتمك ان فولتير وديدرو قد مهدا لي

باريز في حوالى سنة ١٧٨٤ لوجاً ماسونياً سماه « اللوج المصري » وجعل فيه لقب « القبطي العظيم » مكان لقب « المحترم » ثم انشأ لوجاً آخر سماه لوج « ايزيس » كان خاصاً بالنساء وكان في جملة الداخلات فيه مدام جنليس والكونتة بربين ومدام شرلوت دي بولينياك من عائلة بولينياك الشهيرة وغيرهن . وكان اللوج المصري تحت رعاية الدوق دي لكسمبورج

ولاسكندر دياس رواية تدعي جوزف بالسومو سابقة لهذه الرواية وموضوعها كاليوسترو نفسه لان « جوزف بالسومو » من القابه . ولميرابو رسائل يصف فيها اخلاق هذا الرجل وقد الف كثيرون كتباً في هذا الموضوع . ولا ريب ان القارئ بعد ما علمه عن هذا الرجل قد اصبح كثير الاستطلاع لمعرفة ما يعمله وبراه كاليوسترو في الحوادث المستقبلة

هذا السبيل احسن تمهيد فضلاً عن صديقي الملك فردريك (١) الذي كان قدوة حسنة لجميع الملوك . ولكنني مع ذلك عانيتُ في هذا السبيل ما عانيتُ . على ان كل عناء في هذا السبيل لا يُعد امرًا مذكورًا بازاء النجاح . والنجاح مضمون ما دام كثيرون من الملوك يساعدوننا بجهلهم وغلوهم على قلبهم واسقاطهم كما ساعد بعض البابوات على اسقاط المذابح والهياكل . واحص معي الملوك الذين نجحنا الى الآن معهم . اولهم الامبراطور جوزيف الثاني (٢) شقيق ملكتنا الذي اخذ يضطهد الاكليروس ويلغي الديور ويطرد الرهبان حتى النساك من مناسكهم ويرسل الى شقيقته الملكة رسومًا تمثل رجال الدين شر تمثيل . وثانيهم ملك الدانمرك الذي كان يقول (١) وهو في السابعة عشرة من عمره « ان المسيو فولتير هو الذي جعلني رجلاً افتكر واعي ما في هذا الوجود » وثالثهم الامبراطورة كاترين قيصرة روسيا التي نالت من الفلسفة اوفر نصيب (٣) والتي كتب اليها فولتير مع انها كانت تعذب بولونيا وتجزئها « انني مع ديدرو ودالمبر اقيم لكِ هيا كل الاكرام والاحترام » ورابعهم ملكة اسوج ثم يليها امراة المانيا . هؤلاءهم الملوك الذين ربحناهم الى الآن بقوة الفلسفة . فهل رأيت اعظم من الفلسفة واشد قوة منها في هذا العالم

فاجاب جيلبار ولكن بقي لديكم البابا فهل تستطيعون استمالته

فقال كاليوسترو اما البابا فان استمالته امر في غاية الصعوبة ولكن كما ان الملكية قد

---

(١) الملك فردريك — هو فردريك الثاني ملك بروسيا الملقب بفردريك العظيم وانما لقب كذلك لشهرته في ساحة الحرب ولانشائه الجيش البروسي وحبه للعلوم والآداب والفنون . وقد كان من انصار الفلسفة الحديثة ولذلك استدعي اليه فولتير لما اضطهده مقاوموه وكان شديد الميل اليه والاعجاب به وكان يكتب له « صديقي العزيز » . ولد في سنة ١٧١٢ وتوفي سنة ١٧٨٦ . وكان قدوة حسنة لملوك اوربا كلها في نصرة الآداب وحب خير البلاد . ولذلك قال عنه كاليوسترو في هذا الفصل ما قال

(٢) جوزف الثاني — هو الامبراطور جوزف الثاني ملك المانيا من سنة ١٧٦٥ الى ١٧٩٠

(٣) كاترين الثانية — هي قيصرة روسيا الملقبة بكاترين العظيمه وزوجة بطرس الثالث . حكمت روسيا وحدها منذ سنة ١٧٦٣ الى سنة ١٧٩٦ . وكانت محبة للعلم والفلسفة ولذلك شهد لها فولتير الشهادة التي تراها فوق

تزعزعت ولقيت يومها فكذلك ستلقى البابوية يومها ايضاً . وقد كنت منذ مدة في قصر سنت انج (١) لما كنت انت منذ مدة في الباستيل

فقال الدكتور اكنت ضيفاً ام اسيراً . فقال كنت سجيناً فيه ولكني استطعت الفرار منه فاشاعوا انني انتحرت ودفنوا احد الحراس بدلاً مني ولو اتيتهم الآن وقلت لهم انني كاليوسترو لما صدقوني

فقال وكيف عدت الى باريز ألا تخشى ان يلقوا القبض عليك لسوابقك الماضية فقال ضاحكاً كلا لا اخشى الآن احداً لانني قادر ان اثير فتنة بكلمة واحدة لما لي من العلاقة مع الشعب . هذا فضلاً عن انني صديق للافاييت وميرابو ولكانت ايضاً فمن يستطيع ان يمسني بسوء . ومع ذلك فانني عدت الى باريز متنكراً باسم « البارون زانون» وانا ادعي انني صاحب بنك من جنوى اصرف الاوراق المالية مهما كانت قيمتها . وعلى ذكر الاوراق المالية اقول لك كلمة ياجيلبار فاخبرني الست في حاجة الى المال

فقال جيلبار ضاحكاً كلا فانني املك ٢٠ الف ليره دخلاً سنوياً . فقال كاليوسترو ضاحكاً نعم انني اعلم بذلك واعلم ايضاً انك شريك لبيلو المزارع القوي الذي تبقيه في باريز لمساعدتك بالرغم عنه مع ان عائلته الآن محتاجة اليه في بلاده . ولكني اذا عرضت عليك المال الآن فانما افعل ذلك للمستقبل اذ ربما احتجت الى مال كثير وكنت غير قادر على الوصول الى شيء منه فحينئذ ليس عليك الا ان تقصد هذا القصر فتدخل من الباب الذي دخلته الآن بضغطك على زر ساعتك الآن كيف تضغط عليه ثم تصعد الى هذه الغرفة فتجد هذه الصندوقة في هذه النافذة فتمد يدك اليها وتضغط على هذا الزر فتنفتح لك فتجد فيها دائماً لا اقل من مليون فرنك

قال الرجل ذلك ثم ضغط على الزر فانفتحت الصندوقة وبان للدكتور ضمنها كومة من الذهب واوراق مالية كثيرة . فاجابه الدكتور شكراً لك يا معلمي ولكن اخبرني ماذا قدمت تصنع في باريز . فاجاب كاليوسترو قدمت لاصنع ما صنعت انت في الولايات المتحدة : اي ان اؤلف جمهورية

---

(١) سنت انج — هو حصن من حصون رومه اتخذته السلطة البابوية تارة سجناً للذين تريد سجنهم وطوراً ملجاء لها . وقد سجن فيه كاليوسترو هو وامرأته في ٢٣ دسمبر سنة ١٧٨٩ بامر من ديوان التفتيش وذلك لانه ماسوني وقد حكم عليه بالاعدام ثم ابدل الاعدام بالسجن المؤبد

فهز جيلبار راسه وقال وهل تظن ان في فرنسا روحاً جمهورياً · فقال سنبث فيها هذا الروح · قال ولكن الملك يقاومكم · قال ذلك من المحتمل · قال والاشراف يحملون السلاح لاحباط مساعيكم · قال ذلك من المحتمل · قال فماذا تصنعون حينئذٍ · قال اذا لم نستطع ان نصنع جمهورية فاننا نصنع ثورة

فلوى جيلبار راسه على صدره ولبث مفكراً · ثم قال · امر هائل يا يوسف اذا وصلتم الى هذا الحد· فقال نعم يكون هائلاً اذا وجدنا في طريقنا كثيرين بقوتك ومقدرتك· فقال جيلبار انا لست قوياً ولكني امين لمبداءي · فقال كاليوسترو وهذا اشد علينا من القوة (١) ولكن ما رايك في عملنا · فقال جيلبار رايي اننا قادرون عليكم· قال على ماذا انتم قادرون · اعلى منعنا من ان نعمل · قال كلا ولكن على ايقافكم في الطريق قبل الوصول الى غرضكم · فقال كاليوسترو

لا شك انك تجنون ياجيلبار لانك تجهل مهمة فرنسا والوظيفة التي خُلقت لها في العالم وليس في استطاعة احد ان يمنعها منها · ان فرنسا هي دماغ العالم فيجب ان يكون هذا الدماغ حرّاً يفتكر بما يشاء ليعمل العالم بفكره ويكون حرّاً مثله · اتعلم ما الذي هدم الباستيل ياجيلبار

قال الشعب هدمه · قال كلا فان قولك هذا من قبيل اعتبار المعلول علة · ليس الشعب الذي هدم الباستيل · فان ملوك فرنسا صرفوا خمسمائة سنة وهم يسجنون فيه الامراء والنبلاء والاشراف ومع ذلك فقد بقي الباستيل قائماً · ففي ذات يوم خطر للملك جاهل ان يسجن فيه الفكر · الفكر الذي يحتاج الى الفضاء الذي لا نهاية له ليرفرف فيه · الفكر الذي لا يُحصر في مكان الا ويفجر ذلك المكان · ففجر الفكر الباستيل بقوته ونسفه نسفاً · فالفكر هو الذي هدم الباستيل لا الشعب ياجيلبار

فقال جيلبار لقد صدقت · فقال كاليوسترو اتذكر ما كان يقول فولتير قبل موته · انه كتب الى المسيو شوفلين في ٢ مارس سنة ١٧٦٤ اعني منذ ٢٦ سنة ما نصه

«كل ما اراه يدل على انه يوضع الآن في هذه البلاد بذار ثورة لا بد ان تنفجر يوماً من الايام · ويسوءني انني لا اكون من شهود هذه الثورة · ولكن يسرني ان الفرنسويين سيصلون اليها وان كانوا متاخرين · فان النور آخذ بالانتشار يوماً عن يوم

(١) ما اجمل هذا الكلام

حتى انه سياتي يوم يكفي فيه اقل الامور لينفجر انفجاراً . وحينئذٍ تحدث ضوضاء جميلة فما اسعد الفتيان لانهم سيرون اموراً شائقة »

هذا ما كتبه فولتير منذ ٢٦ عاماً وانت ترى انه كان نبياً اذ هل رايت اجمل من هذه الضوضاء التي يقوم بها شعب باريز في هذا الزمان . ومع ذلك فما زلنا يا جيلبار في بداية الضوضاء

فقال جيلبار نبوءتك نبوءة شؤم . فقال كلا وانما ارى الدلائل تدل على ذلك . اسمع لاقص عليك هذا الخبر . من منذ بضعة ايام زرت صديقاً لي يدعى الدكتور كليوتين(١) فهل تعلم باي شيء وجدته مشغولاً وجدته يصنع آلة هائلة تُعدم ٥٠ او ٧٠ او ٨٠ شخصاً في اقل من ساعة . فهل ليس ذلك دليلاً على ان هذا الزمان قد اصبح محتاجاً الى هذه الآلة حتى قام رجل يفكر باختراعها . اولا تذكر ما يقولون من ان الحاجة ام الاختراع واذا كانت هيئتنا الآن محتاجة الى هذه الآلة فذلك دليل على ان رؤوساً كثيرة ستسقط عن اكتافها بضيق اوقات الجلادين عنها . ومن اجل ذلك قلت لك اننا الآن لا نزال في بداية هذه الضوضاء

فتضجر جيلبار من هذا الكلام وقال . انك تخيفني بهذا القول يا يوسف فلماذا لا تكون هنا معزياً ومطمئناً للافكار كما كنت معي في اميركا

فقال كاليوسترو بهدوء . لان البون بين هنا وهناك عظيم . فقد كنا هناك في وسط هيئة آخذة بالنهوض ونحن الآن في وسط هيئة آخذة بالسقوط

فقال جيلبار . انني اترك لك النبلاء يا كونت فليسقطوا . ولكنني اريد انقاذ الملكية لانها حصن الامة

فضحك كاليوسترو ثم قال . الا تزال الكلمات الكبيرة تفتن عقلك ليس . من حصن للامة غير الامة نفسها ومع ذلك فالملكية لا يمكن انقاذها بملك كهذا الملك

فقال جيلبار ولكنه من نسل عظيم . فاجاب كاليوسترو نعم انه من نسل نسر ولكنه انقلب الآن وا اسفاه حماماً . وهل ترى في لحمه الرخو وشفتيه البارزتين المتدليتين وعينيه الضعيفتين وخطوته الواهنة ما يدل على نشاط وقوة ارادة يستطيع بهما الخروج من الهاوية التي سقط فيها . قابل بينه وبين سان لويس وفرنسوى الاول وهنري الرابع ولويس الرابع عشر وفيليب اغسطس اولئك الرجال الذين كانوا ممثلين قوة ونشاطاً وانظر الا ترى فيهم ما يدل على انهم قوم ينهضون وفيه ما يدل على انه رجل آخذ في السقوط . وسبب ذلك

(١) هو طبيب فرنسوي صانع « الكليوتين » الآلة القاتلة ولد سنة ١٧٣٨ وتوفي سنة ١٨١٤

« الزواج بين الاقرباء » · فان اجداد لويس السادس عشر كانوا يتزوجون باقرب البنات اليهم وهكذا يتكرر دم العائلة فيهم فيضعف شيئاً فشيئاً لعدم دخول عنصر قوي جديد اليه من دم غريب · انظر آخر الرجال من الاسر المالكة التي سقطت انظر هنري الثالث آخر اسرة فالوى وغاستون آخر اسرة مدسيس والكردينال ديورك آخر اسرة ستوارت وشارل السادس آخر اسرة هبسبورج فانهم كلهم كانوا ضعاف العزائم صغار النفوس وذلك لان دماء اسرتهم تكررت فيهم بزواج اجدادهم باقرب قريباتهم · اترك الانسان وخذ الحيوان خذ كلباً او فرساً جواداً وكرر النسل فيه مراراً من غير ان تدخل الى نسله دماً غريباً عن نسله فانك عند الفرس الرابع من هذا النسل تجد هذا الفرس احط كثيراً من الفرس الاول · فاذا كان نسل الحيوان يضعف بتكرار دمه فكيف الانسان · ماذا ترى في هذا ايها الدكتور

فنهض حينئذ جيلبار واتجه صوب الباب قائلاً ان قولك هذا يزيد خوفي ورغبتي في البقاء قرب الملك · فقال كاليوسترو ولكنني احبك ياجيلبار · احبك ولذلك اشير عليك بان تنصح للملك ان يهرب من باريز ويترك فرنسا كلها · فالتفت اليه جيلبار وقال وكيف تستجيز ان تشير على الجندي ان يفر من مكانه · فاجاب كاليوسترو بهدوء· نعم اذا كان العدو قد احاط بهذا الجندي من كل جانب واقفل دونه كل باب للامل فانني اشير على الجندي بالانسحاب والتماس مفر

فقال جيلبار بشيء من الحدة · انت تعلم يا كونت انني رجل لا يعبأ بتصاريف الزمن · فليكن ما يكون فانني انصح له بالبقاء في مركزه · استودعك الله يا كونت · ستراني واراك في اثناء النضال وربما نمت واياك النوم الابدي في ساحة القتال الواحد بجانب الآخر · فقال كاليوسترو سترى ان نبوءتي كانت صادقة· فالتفت اليه جيلبار وهو سائر وقال ضاحكاً اما زلت تقصد اقناعي بانك نبي

وهنا قُرع الباب · فقال جيلبار· اسمع يا كونت ان الباب يُقرع وانت تدعي النبوءة فهل لك ان تخبرني الآن قبل ان ترى القادم من هو وماذا يحدث له

فقال كاليوسترو بهدوء ان القادم هو المركيز ففراس وهو من عملاءي الذين يستقرضون المال مني · فقال وماذا يحدث له في حياته

فقال انتظر لاقول لك ذلك ان يدخل · ثم اتجه نحو الباب وفتحه فدخل رجل تدل هيئته على انه من اكابر النبلاء · فسلم على كاليوسترو فعرفه كاليوسترو

ثم طلب من المركيز ان ينتظره في القاعة فذهب المركيز في سبيله فالتفت كاليوسترو الى جيلبار وقال له سألتني ماذا يحدث لهذا الرجل فهل تعرف ساحة «الاعتصاب» في المدينة · قال اعرفها · قال فاذهب اليها في ذلك اليوم الذي يشنقونه فيها

فدهش الدكتور لهذا الكلام · اما كاليوسترو فمدّ اليه يده مصافحاً ثم اراه كيف يضغط على الزر ليفتح الباب متى اراد الدخول الى القصر وبعد ذلك عاد الى حيث كان ينتظره ضيفه فخرج جيلبار غير مصدق ما سمعه ولكنه مبهوت وغائص في بحار الافكار

الفصل الرابع

﴿ الملك في باريز ﴾

وكان الملك في اثناء هذه الحوادث سائرًا في موكبه مع الملكة الى باريز والشعب حوله يحمل على رؤُوس الحراب قطعاً من الخبز عاد بها من فرساليا وذلك لقلة الخبز في باريز بسبب المجاعة

فاتفق ان ولي العهد الذي تحمله الملكة امه في المركبة قد جاع فطلب من امه كسرة خبز · فنظرت الملكة يميناً وشمالاً مفتشة عن الدكتور جيلبار لتطلب منه ان ياتيها بكسرة خبز لولدها · ولكن جيلبار كان في قصر كاليوسترو · فلما لم تجده الملكة سكتت ولم تطلب خبزًا من احد الرجال الذين كانوا امامها · اما الولد فلم يسكت بل اعاد طلبه الخبز من امه · فقالت له الملكة لا يوجد لدينا الآن خبز يابني فاشار الغلام الى الخبز الذي كان على رؤُوس الحراب· فقالت له الام هذا الخبز لحامليه لا لنا وقد جاءوا به من فرساليا اذ ليس لديهم خبز في باريز · فانتبه الولد وقال فهل كانوا يبيتون بلا أكل قبل ذهابهم الى فرساليا فاجابت الملكة ذلك ليس ببعيد لان الخبز قليل في باريز · فالوى ولي العهد راسه وتنهد شفقة عليهم ثم سكت عن طلب الخبز واغمض عينيه طلباً للنوم

فما احسن هذه العواطف من هذا الولد الصغير وما اتعس هذا الشهيد الذي مات بعد ذلك وهو يطلب خبزًا ليسدّ به رمقه

ثم استمر الموكب سائرًا حتى وصلوا الى مدخل المدينة فوقفوا عند الحواجز للاحتفال بدخول الملك فرقصوا وانشدوا واطلقوا بنادقهم في الفضاء مرة واحدة اطلاقاً ارعب ولي العهد واخته الصغيرة فبكيا ونسيا من الخوف الخبز والجوع

وفي اثناء ذلك وقع نظر الملكة على خادمها و يبر النمساوي الذي جاء معها من النمسا فامرته ان يسبقها الى قصر التويلري و يعد لهم طعاماً ومكاناً للمبيت

وقد قالت له هذا القول باللغة الالمانية · وكان الملك يفهم الالمانية ولكنه لا يحسن النطق بها فاجابها باللغة الانكليزية · احسنت بهذا الامر ايتها السيدة

اما الشعب فانه سمع كلام الملك والملكة ولكنه لم يفهم شيئاً من اللغة الاجنبية فسخط واخذ يغضب على الملك والملكة

ثم ظلوا سائرين حتى وصلوا الى قصر المجلس البلدي فاستقبلهم بالي محافظ المدينة ورحب بالملك فاجابه الملك بقوله « انني كلما قدمت الى باريز قدمت اليها بسرور واثقاً بسكانها » غير ان الملك قال هذا القول بصوت ضعيف من التعب والكلل فاخذ بالي يعيده للشعب حتى يسمعه فاعاده ولكنه اهمل قول الملك « واثقاً بسكانها » ولم يقله للشعب فالتفتت الملكة اليه وقالت · نسيت كلمة ياحضرة المحافظ فان الملك لم يقل انه ياتي الى باريز بسرور فقط بل قال انه ياتي واثقاً بها و بسكانها ايضاً

فنظر اليها المحافظ ذلك الفلكي الذي كان يحسن القراءة في كواكب السماء ولا يعرف شيئاً من اصول القراءة في وجوه الناس ثم سكت · اما الملكة فانها صعدت الى العرش الذي نصبوه للملك في قصر المجلس البلدي وجلست عليه بجانب زوجها

وكان هذا العرش مكسواً بالمخمل والحرير ولكنه متقلقل متضعضع لوهن اجزائه وضعف تركيبه فكأنه عرش لويس السادس عشر الحقيقي

وفي الساعة العاشرة مساء اتم الملك زيارته القصر المجلس البلدي وقصد قصر التويلري للنزول فيه · فدخله هو والملكة ونجلاهما ومدام اليزابت والكونتس اندري

فوجد الملك كل شيء معداً في القصر ولاسيما طعامه فابتهج واثنى على و يبر لانه كان محباً للطعام كما تقدم ثم جلس الى المائدة واخذ ياكل متلذذاً

اما الملكة فانها علمت من نظرها الى المائدة انهم لم يضعوا صحفة للكونتس اندري اذ لا يجوز ان ياكل احد على مائدة الملك من غير اذنه فالتفتت الى الملك وسالته · الا تامر جلالتك بان يوضع على المائدة صحفة للكونتس اندري · فالتفت الملك مدهوشاً وقال · كيف لم يضعوا لها صحفة · نحن الآن ناكل كعائلة واحدة وهي من العائلة · ثم قال · ضعوا صحفة للكونتس

فالتفتت الكونتس الى الملك وقالت هل تامرني جلالتكم بالاكل امراً · فقال الملك

كلا لا آكل شيئاً. فقالت اندري فانا اذن غير قادرة على الاكل يا ذا الجلال

ففتح الملك عينيه مدهوشاً من ان شخصاً يتعب طول النهار ثم يقول انه غير قابل للاكل وقال لها . كيف لا تأكلين ايتها الكونتس مع ما عانيته من التعب والسفر . فقالت الملكة وانا ايضاً لست جائعة . فقالت مدام اليزابت ولا انا ايضاً . فزادت دهشة الملك من اناس يتعبون طول النهار ولا يأكلون ثم قال اذا كانت الكونتس غير جائعة فلا ريب انها تعبة فاعدوا لها غرفتها . فقالت الكونتس يعدون لي غرفة . كلا فانني اعرف ان المكان ضيق وكرسي واحد يكفيني للنوم . فقال ويبر انهم لم يجدوا سوى غرفة واحدة خالية فاعدوها للكونتس دي شارني

غير ان ويبر لم يقل هذا القول حتى اهتزَّت له الملكة . ذلك لانها علمت انهم اذا كانوا لم يجدوا سوى غرفة فارغة للكونتس فان هذه الغرفة ستكون لها وللكونت زوجها . اما اندري فانها لم يفتها اهتزاز الملكة بل لم يكن يفت كلاً من هاتين المرأتين شيء من حركات وسكنات رفيقتها

وبعد هنيهة انحنت اندري باحترام امام الملك والملكة ومدام اليزابت ثم سارت الى غرفتها . ولما شبع ولي العهد واخته نهضت الملكة وسارت بهما لتنيمهما . اما مدام اليزابت فبقيت في خدمة الملك

وكانت الغرفة التي جعلوها لاندري محاذية لغرفة الملكة وغرفة ولديها فدخلت الملكة الى غرفتها وما استقربها المقام حتى غمضت عينا ولي العهد ونام فدخلت به امه الى فراشه والقته عليه بتأن وهدوء ثم نزعت ملابس ابنتها وانامتها

ولكن الابنة قبل ان تنام جثت بازاء سريرها واخذت تصلي بسكون وسكوت . ثم نهضت فسالتها الملكة ما لك ابطأت في صلاتك يا تريزه هذه المرة . فقالت الفتاة . رايت ان اخي نام من غير ان يصلي فقلت صلاتي ثم اردفتها بصلاته لكي لا ينقص شيء من المطالب التي نطلبها كل يوم من الله للملك ابي

الفصل الخامس

الشمعات الاربع ورمز مخيف

وبعد ان نامت الفتاة وضعت امها على جبينها قبلة خفيفة وغطت جسمها لئلا تؤثر فيه رطوبة هواء الليل ثم خرجت بهدوء من غرفة الولدين الى غرفتها

وكان يوجد في وسط هذه الغرفة مائدة عليها شمعدان فيه اربع شمعات موقدة . وهذا الشمعدان موضوع على بساط احمر شديد الاحمرار فجلست الملكة على كرسي بازاء هذه المائدة واخذت تفتكر باحوالها

فاستعادت في ذهنها حوادثها الماضية فرات انها ولدت في ٢ نوفمبر سنة ١٧٥٥ وهو اليوم الذي زلزلت فيه الارض في ليشبونه زلزالاً هائلاً قتل فيه اكثر من ٥٠ الف شخص وانهدمت فيه مائتا كنيسة

ثم ذكرت ان اول مكان نزلت فيه في فرنسا حين زيارتها ستروسبورج كان مكاناً مفروشاً ببساط عليه رسوم هائلة تمثل « مذابح الابرياء » وقد اكثرت في تلك الليلة من التامل في هذه الرسوم حتى خيل لها على النور الضئيل ان ما كانت تراه هو حقيقة لا رسم وان تلك الصور اشخاص تُقتل وتُسفك دماؤها هدرًا فصاحت مذعورة واستغاثت ثم سافرت من تلك الغرفة قبل طلوع الصباح

وذكرت ايضاً انها وهي قادمة من هذه المدينة الى باريز لقيت في قصر تافرناي كاليوسترو الرجل المخيف فاثر عليها تاثيرًا هائلاً اذ اراها في زجاجة ماء آلة مخيفة تنثر الرؤوس البشرية بسهولة عظيمة . فبقي في قلبها خوف هذا الرجل

ثم ذكرت انها لما وصلت الى فرساليا ووضعت قدمها على بلاط القصر الملوكي لعلع الرعد في الفضاء عن يسارها لعلعة هائلة اخافت الواقفين حولها وفي جملتهم المرشال دي ريشليه ثم انقضت صاعقة عظيمة فهز المرشال راسه وقال « ليست هذه العلامة علامة خير »

ذكرت الملكة كل ذلك وهي تنظر الى الديباجة الحمراء التي كانت تغطي المائدة التي عليها الشمعدان فاشتعلت تصوراتها وحسبت انها تنظر الى بركة من الدماء . واذا بها ترى على حين بغتة ان احدى الشمعات الاربع الموقدة في الشمعدان قد انطفأت من نفسها ولم يكن يوجد في الغرفة مجرى هواء فعجبت الملكة من هذا الانطفاء ولكنها لم تبال به

فبقيت غائصة في تاملاتها وافكارها في هدوء ذلك الليل وسكونه

وكانت عيناها شاخصتين الى الغطاء الاحمر الذي كانت تراه كبركة من الدماء · وبعد هنيهة رأت نور احدى الشمعات الثلاث قد اخذ يضطرب فرفعت اليه راسها · فرأت الشمعة الثانية قد تراوح نورها وامتد ثم انطفأ ايضاً

فاقشعر جلد الملكة ولبثت شاخصة بالدخان الذي كان ينبعث منها · واخذت تتساءل ما الذي يطفئ هذه الشمعات · فتصورت ان هذه الشمعات الاربع تمثل الملك والملكة ووليديها · وكان هذا التصور قريباً من ذهنها في ذلك الزمان والشعب ثائر من كل جهة فجرى الدم بارداً في عروقها عند تصورها ذلك وانتفضت كما ينتفض عصفور بلله القطر · ولكنها ارادت ان تسكن بالها وتريح خاطرها فقالت في نفسها ان ما حدث قد حدث بالصدفة واي امر غريب في ان تنطفئ شمعتان بين اربع شمعات

على انها ما اتمت هذا التامل حتى دب المرض بالشمعة الثالثة وضعف نورها فذعرت الملكة هذه المرة وتراجعت وهي شاخصة الى الشمعة الضعيفة · فرأت ان نورها قد اخذ يستطيل ويندلع لسانه ثم يضعف ثم يستطيل ثم يضعف · وبعد ذلك تلاشى من نفسه وانطفأ

فنهضت الملكة حينئذٍ والخوف آخذ منها كل ماخذ وكادت تستغيث من الذعر والخوف · ولكن الشمعة الرابعة كانت لا تزال موقدة والنور مؤنس للوحشة فعادت وجلست وهي خافقة القلب مرتعدة الفرائص

وما كادت تستقر في كرسيها الا ونور الشمعة الرابعة قد انطفأ من نفسه على حين بغتة كأن جناح غراب الموت مسه فجأة فاطفأه وصار ظلام في الغرفة

فصرخت عند ذلك الملكة من اعماق صدرها ثم حاولت النهوض فسقطت على الارض مغمى عليها

وما كاد يخرج صوت الملكة من صدرها حتى انفتح باب غرفة الكونتس اندري ودخلت منه الكونتس بثوب النوم فرات على النور المنبعث من باب غرفتها جثة الملكة مطروحة على ارض الغرفة فبادرت اليها فحملتها باحترام وتانٍ والقتها على سريرها · ثم تناولت من جيبها زجاجة فيها ارواح منعشة ووضعتها على انف الملكة · ثم كررت هذا العمل فافاقت الملكة بعد بضع دقائق وقالت وهي تجهل ما تقول — رحماكِ انقذيني

فاجابت الكونتس اندري · جلالتك في امن وسلامة ياسيدتي فلا تخشي شرًّا

فكأن صوت اندري قد نبه الملكة الى نفسها فرفعت راسها ولما ابصرت الكونتس قالت لها بهدوء شكرًا لك ايتها الكونتس · لا تتعبي بالعناية بي · اذهبي الى غرفتك ونامي براحة

فعلمت اندري ان الملكة تامرها بالذهاب قطعياً فنهضت وقالت انا ذاهبة ياسيدتي ولكنني لا انام بل ابقى ساهرة على راحة جلالتك

ثم خرجت تمشي بخطى ثقيلة هادئة كانها خطى التماثيل لو كانت التماثيل تمشي

الفصل السادس

سيباستيين جيلبار

وفي مساء اليوم الذي جرت فيه هذه الحادثة جرت حادثة اخرى في فيلله كوتريه اقلقت الخواطر في مدرسة الاب فورتيه · ذلك ان التلميذ سيباستيين ابن الدكتور جيلبار قد فقد من المدرسة

وقد فتشوا عنه في كل الضواحي وبحثوا في كل الاحراش فلم يجدوه فاستاء الاب فورتيه من هذا الامر لانه كان يعلم المسئولية التي عليه

اما سيباستيين فلفراره سبب لا بدّ من ذكره · وهو انه سمع الاب فورتيه في ذات يوم يحادث كاهن القرية بشان ثورة العامة وهجومهم على قصر فرساليا فابلغ الاب فورتيه الكاهن انه قد تالف حزب جديد من انصار الملكية لمقاومة الثورة وسيبرز هذا الحزب قريباً ثم ابلغه تفاصيل حادثة فرساليا وذكر له عدد الجرحى والقتلى

فلما سمع سيباستيين ذلك وكان يسمعه اتفاقاً في زاوية والراهبان في شاغل عنه ثارت نفسه كلها واضطرب خوفاً من ان يكون ابوه قد قتل في جملة من قتلوا لانه كان لا يجهل مقامه في قصر الملك · فانتظر حتى جن الظلام فخرج سرًّا من المدرسة وسار ركضاً الى قرية هرامونت

واذا ذكرنا هرامونت علمت انه سار لمشاهدة صاحبنا انج بيتو

الا ان الولد لم يجد بيتو في غرفته من سوء حظه فانتظره طويلاً فلم يات · فجلس حينئذٍ على مائدة هناك واخذ قلماً ثم كتب الى بيتو كتاباً مطولاً اظهر له فيه مخاوفه وسبب عزمه على السفر الى باريز وبعد ذلك طوى الكتاب وتركه على المائدة ثم خرج من

الغرفة في نحو الساعة التاسعة مساء وانطلق مسرعاً على طريق باريز

ولم يدخل الخوف قلب هذا الولد من سفره منفرداً وحده في ظلام الليل البهيم لان الذي يكون ابن جيلبار واندري يكون رجلاً وهو في سن الصبي

وانما كان سيباستيين مستوحشاً لانه كان يجهل الطريق المؤدية الى باريز . ومما زاد وحشته انه ما صرف ساعة في السير السريع حتى وصل الى ملتقى طريقين مختلفتين كل واحدة منهما تؤدي الى بلد . فحار في امره لانه كان يجهل ايتهما طريق باريز ولم يكن احد في الطريق ليساله فجلس حزيناً كئيباً على حجر هناك

ولم يستقر به الجلوس حتى سمع سيباستيين اصوات حوافر خيل على الطريق فنهض الولد بثبات جاش ناظراً الى جهة الصوت فما لبث ان بان له فارسان واحد متقدم والثاني متاخر فلما وصلا اليه برز لهما سيباستيين الى وسط الطريق فمد الفارس الاول في الحال يده الى مسدسه فبادره سيباستيين بهذا الكلام

— عفواً ياسيدي فانني لست لصاً وانما انا ولد قاصد باريز وقد تهت عن الطريق فهل لك ان تدلني اليها

وقد قال سيباستيين هذا القول برصانة وقوة اثرتا في نفس الرجل المخاطب . فادنى منه فرسه واجابه ما الذي اضلك يابني نحن قاصدون باريز مثلك فاسلك الطريق التي نسلكها

فاجاب سيباستيين شكراً لك ياسيدي وذهب في السبيل الذي دله الرجل عليه .

ولكن لم يخطُ سيباستيين خطوتين حتى قال الفارس الثاني للاول اما عرفت هذا الولد ياسيدي ايزيدور فانه سيباستيين ابن الدكتور جيلبار الذي كنا نشاهده احياناً مع كاترين . فاجاب الفارس الاول اصبتَ اصبتَ وقد عرفته الآن ثم نادى . سيباستيين سيباستيين . فوقف الولد وعاد راجعاً وقال . نعم عرفتك يامسيو ايزيدور وانني اعيد لك شكري . فدنا ايزيدور منه وقال له وماذا انت ذاهب تصنع في باريز يابني . فاجاب الولد علمت ياسيدي ان الشعب هجم على قصر فرساليا وقتل بعض من فيه وقد خشيت على ابي فقصدت السفر الى باريز للتثبت من ذلك

فتنهد الفتى ايزيدور لما سمعه من ارتياب سيباستيين بقتل والده لانه هو كان يعلم ان اخاه قد قتل ولم يبقَ مجال للارتياب في مقتله . ثم قال لسيباستيين . ولكن الطريق طويلة يا ولدي والوقت ظلام فهل لك ان تركب وراء خادمي على جواده

فاجاب سيباستيين جواب من جُرح في عزة نفسه شكراً لك ياسيدي

فشعر ايزيدور بانه جرح كبرياء الولد فقال بل لدي خاطر آخر اقرب من الاول وهو انني احب رفقتك ومحادثتك على الطريق فاركب ورائي على فرسي ومتى وصلنا الى المحطة الاولى اخذنا مركبة وسرنا في طريقنا

فرضي سيباستيين بهذا الامر فاردفه ايزيدور وراءه ثم سار الجوادان بالثلاثة يخبان خبباً على طريق باريز

الفصل السابع

الخيال العجيب حقيقة متجسمة

وفي الساعة الخامسة من مساء اليوم التالي وصل ايزيدور وسيباستيين الى قصر التويلري في المركبة التي استاجراها من دامارتين

فصعدا الى القصر ليسألا الواحد عن اخيه الكونت دي شارني والثاني عن ابيه الدكتور جيلبار

وكان لا فاييت يشدد حراسة الملك ولذلك كان النفوذ الى القصر امراً صعباً جداً ولكنه كان سهلاً لايزيدور دي شارني اذ يكفي للاذن له بالدخول ان يذكر اسم عائلته

ولما صعد ايزيدور وسيباستيين الى القصر ادخلهما احد الحراس الى غرفة للانتظار فيها فجلس سيباستيين على مقعد هناك واخذ ايزيدور يخطر في الغرفة ذهاباً واياباً

و بعد هنيهة قدم احد الحراس وابلغهما ان الكونت دي شارني في غرفة الملكة وان الملك مختلٍ باحد اطبائه فربما كان هذا الطبيب الدكتور جيلبار

فتنفس سيباستيين الصعداء لانه علم انه سيشاهد اباه سالماً بعد حين

و بعد بضع دقائق دخل حارس ثانٍ وقال . اين الفيكونت دي شارني فاجاب ايزيدور هاءنذا . فقال الحارس ان جلالة الملكة قد امرت بان تذهب لمقابلة اخيك في غرفتها

فالتفت ايزيدور الى سيباستيين وساله ان ينتظره لانه سيعود بعد هنيهة ثم دخل وراء الحارس قاصداً غرفة الملكة

فبقي سيباستيين وحده

والعادة انه اذا بقي سيباستين وحده تتراوح في دماغه جميع التصورات التي تصورها في

حياته وتعود اليه الخيالات التى علمنا امرها فيبقى ساعة او ساعتين مبهوتاً متاملاً غائصاً في بحار الافكار والخيالات · فحضرته هذه المرة الخيالات ايضاً فاستسلم اليها

فذكر رياض فيلله كوتريه واحراشها حيث كان يري الرؤى التي يرتاح اليها· ذكر تطوافه في ذلك الخلاء العظيم تحت ظل الاشجار الباسقة ينشد الخيال البخاري الذي ينقلب بعد ذلك جسماً بشرياً · ذكر تلك المراة التي ما فتئ يراها في احلامه ورؤياه ويركض وراءها في الاحراش ويدعوها امه

فارتاحت نفس سيباستيين الى هذه الذكرى فلبث مبهوتاً غائصاً في افكاره كالعادة وهو يقول مردداً بين شفتيه · اماه · اماه

ولكن لم يحضر في ذهنه خيال تلك المراة التي كان يراها في الاحراش تركض امامه وهو يركض وراءها وما ردد قوله اماه اماه مرتين بين شفتيه حتى انفتح باب تجاهه وظهرت فيه تلك المراة نفسها

الا ان هذه المراة كانت هذه المرة حقيقة لا خيالاً

اي انها كانت من لحم ودم لا من بخار دماغي او وهم تصوري

وكان سيباستيين حين انفتاح هذا الباب ينظر اليه من غير قصد ولذلك فان المراة لما ظهرت في الباب اول ما وقع نظره وقع عليها

فاجفل سيباستيين ونهض مذعوراً وقد دبت في عروقه روح جديدة فجعل ينظر الى تلك المراة وقلبه يخفق خفقاناً شديداً

اما هذه المراة فانها خرجت من الباب بعظمة تحاكي عظمة الملكات ثم سارت مسرعة بقامة هيفاء مستقيمة كالرمح او كالالف وبهيئة تجعل في النفوس تاثيراً لا يزيله شيء

وقد اجتازت القاعة دون ان تنظر الى سيباستيين او تعلم بوجوده

فازداد سيباستيين التهاباً وحرقة · ولما خرجت من الباب الخارجي ثارت نفسه كلها وخشي ان تفلت من يده مع انه قد قضى سنوات طوالاً وهو يبحث عنها ويتلهب للوصول اليها

ولذلك وثب من الغرفة مقتفياً آثارها

اما المراة فكانت منقبضة النفس حزينة · فلما سمعت صوت اقدام وراءها اسرعت في المسير فراراً منها

فلما اسرعت هال سيباستيين اسراعها خوف ذهابها منه فصاح بها · مدام · مدام

فلما وقع هذا الصوت في اذني المراة ارتعدت فرائصها وظهر التاثر على جسمها فازدادت اسراعاً

فوثب سيباستيين من سلم غير السلم التي كانت تنزلها وصار يركض وراءها . غير ان المراة ما لبثت هنيهة ان وصلت الى مركبة هناك ففتحت بابها والقت نفسها فيها

ولكن سيباستيين لم يدعها تستقر في المركبة حتى وصل اليها قبل ان تقفل بابها فدنا منها وهو يلهث من التعب وعيناه تقدحان شرر الذكاء في وجهه ثم اخذ ذيل ثوبها وجعل يقبله ويقول . آه ياسيدتي . آه ياسيدتي

فالقت المراة عند ذلك نظرها الى وجه هذا الفتى الجميل الذي اخافها صوته وجعلها تفر من وجهه ثم قالت له بصوت يبدو فيه التاثر

ماذا تريد مني ايها الفتى ولماذا تركض ورائي

فاجاب سيباستيين اريد مشاهدتك وتقبيلك . ثم قال بصوت ضعيف كمن يهمس همساً . اريد ان ادعوك « امي »

فارتعدت هنا فرائص المراة لهذه الكلمة فصاحت صيحة خفيفة ثم مدت يديها اليه كأن وحياً نزل عليها فتناولته وعانقته والصقت شفتيها المرتجفتين المضطربتين على جبهته الملتهبة ثم انها ضمته الى صدرها بقوة كأنها خافت ان ياتي احد ويأخذه منها وجذبته الى المركبة بحركة عنيفة وصاحت بالسائق

— الى منزلي في شارع كوك هيرون نمرو ٩

فراحت المركبة في الشوارع كالبرق الخاطف

اما المراة فانها التفتت الى فتاها وسالته وماء الحنو الوالدي يترقرق في عينيها . ما اسمك . فاجاب اسمي سيباستيين . فعانقته وقالت تعالَ تعالَ ياسيباستيين الى قلبي

ثم انها استلقت على المركبة استلقاء من يكاد يغمى عليها وضمت سيباستيين الى صدرها وجعلت تقول وراسها بازاء راسه : ما هذا الذي اشعر به الآن يارباه . اهذا ما يسمونه السعادة

وكانت هذه المراة هي الكونتس اندري زوجة الكونت دي شارني

الفصل الثامن

﴿ منزل اندري ﴾

راينا ان اندري سارت بسيباستين الى منزلها في شارع كوك هيرون ولذلك سبب لا بد من ذكره · فانه جرت العادة ان تقيم نساء الملكة في القصر الملكي لا في منازل خاصة فكيف انتقلت اندري الى منزل خاص

سبب ذلك ان اندري كانت تشعر بان مقامها في قصر الملك بجانب الملكة اصبح ثقيلاً عليها لما بينها وبين الملكة من العواطف المختلفة بشان زوجها الكونت دي شارني الذي تقدم لنا القول انه زوجها بالاسم والاكليل فقط ولكنه في الحقيقة ليس زوجاً لها · فلما اغمي على الملكة في ليلة الشمعات الاربع وابعدتها الملكة عنها على الوجه الذي مر ذكره زاد هذا الامر مقامها بجانب الملكة صعوبة على صعوبة فعزمت في تلك الليلة ان تترك قصر الملكة وتسكن وحدها

فلما طلع الصباح ارسلت احدى نسائها الى المنزل الذي ورثته من ابيها في شارع كوك هيرون وامرتها ان تعدّه لتقيم فيه · ولما اتمت الخادمة ذلك دخلت اندري على الملكة وابلغتها رغبتها في المعيشة وحدها للاهتمام بصحتها فلم تلح الملكة ببقائها عندها الا الحاح من تريد ان لا يقال انها قصرت في استبقائها فودعت اندري الملكة وخرجت ثائرة النفس من لدنها · وفي خروجها لقيت سيباستيين في القاعة وجرى لها معه ما تقدم لنا تفصيله

فكأن سيباستيين قد جاءها في حينه لانها لولا انفصالها عن الملكة واعدادها منزلها لما كان لها ان تبقيه عندها

ولما وصلت مركبة اندري الى هذا المنزل كانت اندري قد شبعت من سيباستيين ضماً وتقبيلاً فوثبت الى الارض كالغزال النافر دون ان تنتظر السائق ليفتح لها باب المركبة ثم اخذت سيباستيين بيده ودخلت به المنزل مسرعة

وكانت تقول في نفسها وهي داخلة · لقد عاد ولدي الي · لقد سُرق في ليلة مظلمة من هذا المنزل نفسه والآن يعود اليه نفسه · وهو يعود اليه باعجوبة سماوية دون ان يدلني احد عليه او يدله احد علي

ولما اغلقت اندري باب منزلها استسلمت حينئذٍ الى عواطفها الوالدية فالتفتت الى سيباستيين وقلبها يقطر حنوًا وعيناها تترقرقان بالدمع وقالت له بصوت من لا يصدق ان ما يراه حقيقة لا خيال

اذًا هذا انت يا ولدي

ولم يكن سيباستيين باقل ارتياحاً الى مشاهدة هذه المراة التي يدعوها امه وتدعوه ولدها فاجابها باسماً منشرحاً نعم يا اماه

ففعلت كلمة « اماه » التي لم تسمعها هذه المراة قط قبل الآن في نفسها فعل الكهربائية في الاجسام فاكبت على ولدها تضمه وتقبله وهي لا تصدق انه هو

ولما عاد اليها رشدها التفتت الى الغرفة التي كانت فيها وقالت وهي تهز راسها . هنا . هنا

فسالها سيباستيين ماذا تريدين يا اماه بقولك هنا . فاجابت اندري

اريد بقولي هنا انك كنت ههنا لما سرقوك مني منذ ١٥ سنة . لقد ولدتك في هذه الغرفة وسرقوك من هذه الغرفة والآن تعود الى هذه الغرفة باعجوبة سماوية

فقال سيباستيين . نعم باعجوبة سماوية يا اماه وبوحي سماوي . لانني لولم اشعر بالخوف على حياة ابي لم اسافر من المدرسة ولم اقصد باريز ولم اصل الى مفترق الطريق في الظلام فابقى حائرًا عنده . ولو لم اصل الى هذه الطريق في الظلام لما وجدت المسيو ايزيدور دي شارني ولو لم اجده لما كان اردفني وراءه وجاء بي الى التويلري ولو لم اجيء الى التويلري لما رأيتك ولما رأيتني ابدًا

وكانت اندري تصغي اليه بارتياحٍ شديد . ولكنه لما قال « لو لم اشعر بالخوف على حياة ابي » انقبضت نفس اندري وظهرٍ على وجهها شعور غريب فاغمضت عينيها لتخفي انقباضها

ثم انبسطت نفسها لما قاله في آخر كلامه . وسالته علمت الآن كيف لقيتك ياسيباستيين فقل لي كيف عرفتني

فضحك سيباستيين واجاب هذا امر غريب يا امي لانني لا اعرف كيف حدث .

فقالت اندري ولكن من قال لك حينما رأيتني انني امك . فاجاب قال لي ذلك قلبي .

ففتحت اندري ذراعيها وضمته الى صدرها ضماً شديدًا قائلة — تعالَ الى قلبي

ثم سالته . ولكن الم ترني قبل الآن ابدًا

فاستجمع سيباستيين قواه لدى هذا السؤال وقال اسمعي يا امي لاقص عليك امرًا

غريباً . فانني اعرفك منذ عشر سنوات

فدهشت اندري . وقالت كيف تعرفني منذ عشر سنوات ولم تأتِ اليَّ او لم تبلغني خبر وجودك . فقال سيباستيين . اسمحي لاخبرك كيف كنت اعرفك . انني ارى في بعض الاحيان اموراً عجيبة اسميها احلاماً اما ابي فيسميها مرضاً دماغياً

فلما لفظ سيباستيين كلمة « ابي » شعرت اندري كأن سهماً رُزَّ في قلبها

فاستانف سيباستيين الكلام قائلاً . وذلك انني كلما اصبحت منفرداً وحيداً في حرش او في مكان هادىء صرت اتامل تاملات غريبة وارى رؤى عجيبة فيتمثل لي في اول الامر شيء من البخار امام عيني ثم يكبر هذا البخار ويتجسم فيصبح امراة شبيهة بك في ملامحك . في قامتك ووجهك ويديك وكل ما لك . فحينئذٍ انهض مسرعاً من مكاني واركض وراء هذا الخيال الذي يكون امامي وهو يركض مني . وقد اقطع مسافات بعيدة راكضاً وانا اناديه يا امي يا امي وهو يركض مني ملتفتاً من حين الى حين اليَّ ولا ازال كذلك حتى اسقط على الارض من التعب والجهد فتزول حينئذٍ هذه الرؤيا . هذا سبب قولي لك انني اعرفك من عشر سنوات ذلك انني ارى هذه الرؤيا من عشر سنوات . ولما رايتك الآن في قصر التويلري حين خروجك من الباب الذي كان امامي عرفت انك انت هو الخيال الذي كنت اراه في احلامي واسميه امي . فلم يبقَ عندي ريب انك امي . ولكن كيف عرفتني انتِ

فقالت اندري انا كنت اقل سعادة منك يابني لانني ما كنت اراك لا في الحقيقة ولا في الخيال . ولكنني لما اجتزت القاعة التي كنت جالساً فيها شعرت دون ان اراك بقشعريرة عرتني . ولما سمعت وقع اقدامك ورائي احسست بانفعال عظيم في نفسي ولما ناديتني « ياسيدتي » كدت اقف لك وحينما دعوتني « يا امي » كاد يغمى عليَّ . ولما رايتك عرفت انك ولدي

فمد سيباستيين يديه وعانق امه وقبلها ثم قال لها . قد اجتمعنا الآن فلا نفترق فيما بعد

وكانت اندري قد نست المستقبل فلم تنظر الا الى الماضي والحاضر فلما تكلم سيباستيين عن المستقبل عرتها قشعريرة واصبحت متاملة مبهوتة . ثم قالت متنهدة . انني اباركك يابني اذا كنتَ قادراً على ابقاء شملنا مجموعاً

فقال الولد نعم انا كفيل بذلك ولكن دعيني اصنع ما اريد . قالت ماذا تريد أن

تصنع قال مصالحتك مع ابي على شرط ان تقولي لي سبب افتراقكما

ولكن الولد ما لفظ هذا الكلام حتى اصبحت اندري صفراء كالاموات · ولما رأى سيباستيين انها بقيت ساكتة قال · على ان السبب مهما كان عظيماً فاني ازيله لان ابي يحبني ودموعي كفيلة بارضائه مهما كان غاضباً وساخطاً

فازداد اصفرار اندري وانقباض نفسها : فقالت كلا ثم كلا

فقال الولد اسمعي يا امي انني قادر على كل شيء فانا آخذك بيدي واذهب باكياً الى ابي الذي يعبدني كما قلت لك واقول له يا ابي هذه امي انظر ما اجملها والطفها فانا اريد ان تصالحها

فما لفظ سيباستيين هذا الكلام حتي وثبت اندري مذعورة ودفعت سيباستيين عنها· فنظر اليها الولد نظرة دهشة واستغراب فقالت اندري · كلا · ثم كلا · لا تحادثني عن هذا الامر

فذكر الولد حينئذٍ ما قاله له ابوه بنزق يوماً من الايام « ياسيباستيين لا تكلمني بعد الآن عن امك » فلبث الولد مبهوتاً لا يعرف لهذا اللغز حلاً · ولكنه سال امه بشيء من الرصانة وثبات الجاش لماذا لا تريدين ذلك

وكانت اندري حينئذ في اقصى درجات الغضب والهياج فاجابته تسالني لماذا لا اريد ذلك · لا لا · دع هذا لانك لا تعرف شيئاً

فاجاب الولد مصرًا بل اريد ان اعرف لماذا لا تريدين

وكان الغضب قد طفح في صدر اندري فلم تعد قادرة على كظم ما في نفسها فصاحت ملء فمها · تريد ان تعرف السبب فانا اقوله لك· انني لا اريد ان ارى اباك لانه رجل شقي تعيس لئيم

فوثب سيباستيين عن الكرسي وثبة السبع فاصبح تجاه امه وجهاً لوجه ثم صاح بها · انقولين هذا القول عن ابي ايتها السيدة · عن ابي الدكتور جيلبار تقولين كذلك · عن ابي الذي رباني واعطاني كل شيء وجعلني اكون كما انا الآن· تقولين هذا القول · اذن انا مخطىء لانك لست امي

ثم هم الولد بالوثوب الى الباب للخروج منه· فاوقفته اندري متعلقة به وقالت له · اسمع اسمع ياسيباستيين · ان هذا امر لا تستطيع ان تفهمه · ولا تقدر على الحكم فيه

فانتفض الولد للتخلص من يديها وقال · دعيني دعيني فانني ما عدت احبك

فصاحت حينئذٍ اندريه عند هذا الكلام . ولكنها خنقت صياحها في فمها لصوت مركبة وقفت على باب منزلها

فاصغت اندري ناظرة الى جهة الباب واذا بالبواب قد دخل بعد هنيهة وقبعته في يده وقال لها ان حضرة الكونت دي شارني يطلب مقابلة الكونتس

فصعقت اندري لهذه الزيارة الفجائية فجذبت سيباستيين بعنف من يده الى غرفة نومها وقالت بسرعة ادخل ادخل ياولدي ولا تدع احد يراك او يعلم بوجودك . ادخل فساقص عليك كل شيء . لا لا . لا اقص عليك شيئاً لانك لا تفهم شيئاً من ذلك ولكني اقبلك واضمك الى صدري فتعلم انك ولدي

ثم تركته في الغرفة واقفلت الباب عليه وخرجت . وبعد ذلك جلست في كرسيها واهية القوى خائرة العزم من شدة التأثر والانفعال وامرت البواب بصوت اظهرت فيه الثبات الجاش ان يُدخل الكونت دي شارني زوجها

الفصل التاسع

❊ الرجل وامرأته ❊

وبعد دقيقة دخل الكونت دي شارني . وكان مرتدياً بالسواد حداداً على اخيه . ولكن الحداد لم يكن في ثيابه بل كان في وجهه ايضاً لما كان عليه من آثار الاصفرار والدموع ولا شيء يزيد في جمال الوجه الجميل مثل الدموع والتاثير الذي تجعله فيه ولذلك كان وجه دي شارني في هذا اليوم في غاية الجمال

فنظرت اليه اندري من بعيد برصانة وثبات جاش . اما دي شارني فدنا منها كما كان يدنو الرومان واليونان من تمثال ديانا الجميلة . فلما وقع نظره عليها اغمضت عينيها هنيهة ثم فتحتها فابصرت زوجها واقفاً لديها

وحينئذٍ دخل البواب وسأل هل يذهب السائق ام يبقى في انتظار حضرة الكونت

فنظر دي شارني الى اندري ليعلم من نظره اليها ماذا يجيب السائق . فرأى نظر اندري مبهماً غامضاً فتنهد وقال للبواب . بل فلينتظر

فخرج البواب واغلق الباب فكانت هذه هي المرة الاولى التي وجد فيها هذان الرجلان منفردين وجهاً لوجه

فافتتح دي شارني الكلام بقوله • عفوًا ياسيدتي اذا كدرت صفوك بزيارتي الآن فانني مامور بها من لدن جلالة الملك

فاجابت الكونتس بل يسرني ان اراك ايها الكونت وما كنت اتوقع زيارتك الآن لانني علمت انك عند الملكة

وقد لفظت الكونتس اسم الملكة ووجهت نظرها الى عينيه لتقرأ فيهما ماذا تحدثه هذه الكلمة في نفسه • ففهم دي شارني مرادها واجاب • يسرني ياسيدتي كل السرور ان تكوني افتكرت بي وسالت عني • اما زيارتي للملكة فلم تكن مرضية

فانتبهت اندري هنا كل الانتباه وفتحت عينيها ثم سالته كيف لم تكن زيارتك مرضية• قال لان الملكة امرتني بالابتعاد عن باريز وقد عصوت هذا الامر

فزادت دهشة اندري وقالت كنت انتظر ان تامرك الملكة بالاقامة بجانبها لا ان تامرك بالابتعاد عنها • وكيف استطعت ايها الكونت ان تعصي امر الملكة

ففهم دي شارني مراد زوجته بقولها « كيف استطعت » فتنهد واجاب ان الملكة ارادت ارسالي في مهمة الى تورين لمقابلة الكونت دارتوى والدوق دي بوربون اللذين برحا فرنسا فرفضت ذلك لانني اشد نفعاً في فرنسا مني في خارجها وقد اقترحت عليها ان ترسل مكاني اخي ايزيدور دي شارني الذي قدم اخيرًا الى باريز فرفضت فحكمت الملك في هذا الامر فحكم لي

ولما كان الملك مجتمعاً بالملكة سالها عنك فاجابته انك خرجت من القصر فدهش الملك وسالها اين نزلت فاجابت انها لا تعلم فزادت دهشته وعلم انه حدث بين الملكة وبينك امر فامرني ان آتي اليك واطلب منك ان تذهبي لمقابلته • وقد قال لي انه لا بدّ ان تذهبي اليه ولو اقتضى ذلك ان يحضر هو نفسه و يعود بك

فاطرقت اندري ثم اجابت شكرًا للملك على تعطفه والتفاته فلا ريب انه ذو خلق كريم

فقال دي شارني نعم انه ذو خلق كريم • وقد ابكاني كرم نفسه في هذا الصباح فانه بعد ان امرني بالمجيء الى هنا لمقابلتك والعودة بك استوقفني حينما هممت بالذهاب ومدّ اليّ يده قائلاً • نسيت ان احادثك بالامر الذي كان يجب ان اجعله مقدمة الحديث وهو مصابك الذي البسك الحداد • ولكنه من سوء الحظ مصاب لا يجدي فيه كلام الناس وان كانوا ملوكاً • فانا لا سبيل لي الى تعزيتك عن وفاة اخيك الذي قام بواجباته

ولكني اطلب منك اذا كان لاخيك الفقيد امراة واولاد ان تاتيني بهم على عجل فان الملكة تتولى شان المراة وانا اتولى شان الاولاد

ولم يأتِ الكونت دي شارني على هذا الكلام الذي قاله له الملك حتى رات زوجته الكونتس اندري الدموع تجول في عينيه من ذكرى اخيه فابتلت عيناها بالدموع ايضاً وقالت له . لا ريب ان الملكة قد سبقت فقالت لك ايضاً مثل هذا القول

ولما لفظت اندري اسم الملكة حدقت في وجه زوجها . فقال شارني

الملكة لم تذكر لي كلمة بهذا الشان . الملكه لم تحدثني عنه كانها تجهل ان اخي جورج قد قُتل في سبيل الدفاع عنها . ولذلك اجد في نفسي ارتياحاً كما ذكرت كلام الملك وعلى الخصوص قوله الاخير الذي اختتم به كلامه

فانه لما رآني قد اغرقت في البكاء حين طلبه راجع نفسه وقال قد اخطأت في انني خاطبتك بهذه اللهجة فانني اعرف مبلغ حزنك ومصابك . فاذهب الآن يا كونت . اذهب الى عزيزتك اندري لتعزيك عن مصابك فان المصائب في الاحياء لا يعزي عنها غير الاحياء وقد جئت ايتها السيدة بناء على امر الملك فارجو منك المعذرة

وكانت اندري قد تاثرت اشد تاثر من كلام الكونت فنهضت ومدت يديها الى الكونت قائلة هل ترتاب في سروري بلقياك ياسيدي

ولكن اندري لم تمد الى الكونت يديها حتى قبض الكونت عليهما وطبع عليهما قبلتين بفمه الملتهب فصاحت اندري صياحاً ضعيفاً وسحبت يديها من يديه كأن النار احرقتهما ثم انطرحت على المقعد ثانية

غير ان يديها في انسحابهما سحبتا معها يدي الكونت زوجها فلم تشعر الكونتس الا والكونت جالس على المقعد بجانبها من غير ارادتها ولا ارادته

وفي هذه الدقيقة سمعت اندري حركة في الغرفة التي خبأت فيها سباستيين فاجفلت عند ذكرها ابنها ونهضت مذعورة من جانب الكونت . فحسب شارني هذا الاجفال فراراً منه فضغب ونهض قائماً بنزق فصار بازائها وجهاً لوجه

الفصل العاشر

﴿ غرفة نوم اندري ﴾

وكانت اندري حينئذٍ بين امرين . حب ابنها وحب زوجها

ذلك ان هذه الامراة التي تزوجت الكونت دي شارني بناء على ان تكون زوجته بالاسم فقط عملاً بارادة الملكة التي كانت تحب الكونت قد اصبحت الآن بعد انقضاء سنوات على هذا الزواج الاسمي تحب زوجها حباً شديداً . وقد سعت فتخلصت من قصر الملكة لتتمكن من مقابلة زوجها على انفراد فتم لها ذلك ولكنها ما كادت تدرك غرضها من حب زوجها حتى وجدت ولدها الذي كان قد سرق منها . فكان ذلك مصاباً جديداً لها لان حب ابنها كان يقضي عليها بابعاد زوجها وحب زوجها يقضي عليها بابعاد ابنها

ولما نهض الكونت شارني وصار بازائها وجه اليها الحديث بلهجة جدية فقال . والآن ماذا اقول للملك ايتها السيدة الا تعودين الى القصر كما طلب

فقالت اندري متنهدة كلا ياسيدي وارجوك ان تبلغ شكري الى الملك

فتنهد الكونت وقال ولكنك ستكونين وحيدة فريدة في هذا المنزل ياسيدتي

فابتسمت اندري ابتساماً ذا معنى خاص وقالت لقد تعودت معيشة الوحدة ياسيدي . انما عشت هكذا طفلة وفتاة و . . .

ثم توقفت عن الكلام فقال الكونت اتمي العبارة ياسيدتي

فقالت . نعم كان في خاطري ان اقول انني عشت هكذا طفلة وفتاة وزوجة

فقال الكونت هل تقصدين ياسيدتي توبيخي بهذا القول . فقالت اندري كلا ياسيدي وكيف يسوغ لي ان الومك على امر لم نتعاهد عليه . فان الازواج يتعاهدون حين عقد الزواج على الحب والطاعة والعناية . اما نحن فلم نتعاهد حين الزواج الا على الانفصال وعدم الاكتراث . فكيف يسوغ لي ان الومك

وكانت اندري تقول هذا القول وعيناها تبرقان برقاً غريباً يدل على النار التي يقدحها زناد الحب في احشائها . وكذلك كان الكونت زوجها . ولكن كل واحد من هذين الزوجين كان يجهل ما في نفس الآخر

وبعد برهة استانف شارني الكلام فقال . وعلى افتراض انك تعودت الوحدة ياسيدتي فانني لا ارى هذا المنزل لائقاً بمقامك . فقالت اندري انت تذكر ايها الكونت انني ولدت

فيه وهو تذكار من ابي فضلاً عن انني لا احب البذخ كثيراً · فقال الكونت اعرف ذلك ولكني لا اظنك تستريحين فيه لحقارة شانه · فقد شاهدت في دخولي بعض غرفه وها انذا اشاهد ما بقي منها لابرهن لك على انها غير لائقة بك

قال الكونت دي شارني هذا القول ثم اتجه صوب الغرفة التي كانت امامه ليفتحها وكانت هذه الغرفة هي الغرفة المخبوء بها سيباستيين

فلما رأت اندري الكونت يخطو نحوها اقشعر جلدها وارتعدت فرائصها فاسرعت كالبرق الخاطف الى الكونت ووقفت في وجهه بينه وبين الباب وصاحت باضطراب وذعر · ارجو منك ياسيدي ان لا تدخلها

فلما راى الكونت ذلك اخذ الحزن والغضب كل ماخذ منه لانه حسب ان اندري تمنعه من دخول الغرفة لانها غرفة نومها · فقال بنزق والدموع في عينيه · كنت اعلم ايتها السيدة انك لا تحبينني ولكنني ما علمت قط انك تبغضينني الى هذا الحد

قال ذلك ثم استجمع قواه وانخطف من امام اندري بغضب وخرج من المنزل ليركب مركبته

اما اندري فانها بقيت تنظر اليه في خروجه حتى توارى عن عينيها ثم اصغت لتسمع حركة مركبته و بقيت مصغية اليها حتى تلاشى صوتها فتنهدت تنهداً خفيفاً ثم فتحت باب غرفة نومها ودخلت مسرعة وهي تنادي : سيباستيين سيباستيين

ولكن لم يجاوبها احد في الغرفة · فنظرت في جهاتها الاربع بنظر حائر وقلب مضطرب فلم تجد احداً · فنادت ثانية سيباستيين سيباستيين فلم يجاوبها احد ايضاً · فعظم اضطرابها واشتد قلقها على ولدها · وحينئذٍ احست بنسيم داخل فالتفتت الى الجهة التي هب النسيم منها فرأت نافذة مفتوحة فعلمت في الحال ان سيباستيين قد فرَّ منها

فاغرقت اندري حينئذٍ في الندب والبكاء لانها فقدت كل شيء حين حسبت انها وجدت كل شيء · فقدت زوجها الذي راح ساخطاً منها وفقدت ابنها الذي فرَّ من تلك النافذة · فانطرحت حينئذ على سرير هناك واطلقت العنان لحزنها و ياسها فبقيت عليه تبكي وتلتهب مدة ساعة وقد بلغت نفسها حد الياس والتعاسة الذي يتمنى التعساء عنده ان يفنى هذا الكون و يتلاشى ليفنوا معه و يستريحوا من شقائهم

و بينما هي على هذه الحالة واذا بها تشعر شعوراً غريباً · فان جسمها اصبح مضغوطاً واعضاءها مضطربة ونفسها مثقلة كما تثقل في العادة قبل ان تصاب بالنوبات العصبية · ثم

احست ايضاً بان قوة غير منظورة تنهضها بالرغم عنها . فجلست طوعاً لها ولكنها مدّت بصرها الى جهات الغرفة وهي مذعورة من هذا التاثير الغريب فرات من خلال الدموع التي في عينيها منظرًا جرى له الدم باردًا في عروقها . رات جسماً بشرياً آخذًا بالدخول من النافذة التي فرّ منها ابنها . ولكنها ما وقع بصرها على هذا الجسم حتى جفت الدموع في مآقيها واستنارت عيناها فابصرت رجلاً واقفاً امامها . فاشتد خوفها . فارادت الصراخ فلم تقدر عليه . ارادت مد يدها الى سلك الجرس تنبيهاً للبواب فلم تقدر ايضاً . ومما زاد ذعرها وخوفها انها عرفت أن الرجل الذي كان واقفاً امامها هو الدكتور جيلبار ابو سيباستيين

ولكن كيف وصل الدكتور جيلبار الى منزل اندري . هذا امر نذكره في الفصل التالي

الفصل الحادي عشر

﴿ طريق مالوفة ﴾

لما خرج الدكتور جيلبار من بين يدي الملك صادف اتفاقاً في دهليز هناك المسيو ايزيدور دي شارني الذي اردف سيباستيين على جواده وجاء به الى باريز فابلغه ايزيدور ان ابنه قد قدم من فيلله كوتريه وانه ينتظره في القاعة الخضراء فطار صواب الدكتور لهذا القدوم الفجائي فاسرع الى القاعة الخضراء ليلتقي ولده ولكنه لم يلتق فيها احدًا

فزاد قلقه وسأل احد حراس المكان عن ولد كان هناك فابلغه احدهم ان هذا الولد رأى امرأة خارجة من غرفة هناك فركض وراءها الى اسفل السلم

فامتقع وجه الدكتور واضطرب مع انه اعتاد خوض المنايا . ثم طلب من الحارس ان يذكر له صفة المراة فوصفها الحارس له . فعلم الدكتور انها الكونتس دي شارني . فعض شفتيه حينئذ من الغيظ وقال في نفسه متاملاً : اتراه عرفها ؟

ثم نزل من القاعة الخضراء وسأل البوابة التي كانت واقفة بازاء السلم امام الباب عن ولد وامراة فقالت البوابة انها ابصرت الولد يركض الى المراة وهي تهرب منه ولكنه لما بلغ الى مركبتها ادخلته معها اليها وسارت بهما المركبة تنهب الارض نهباً

فسأل الدكتور وهل لم تسمعي اسم المكان الذي سارت المركبة اليه . فقالت البوابة .

نعم سمعت المرأة تقول للسائق — الى منزلي في شارع كوك هيرون نمرو ٩

فارتعدت فرائص جيلبار لهذا العنوان لانه عنوان المنزل الذي سرق ولده منه منذ ١٥ سنة فقال — يا له من اتفاق مشوم

ولم يقل « ياللعناية الالهية » التي ردت المسروق الى المكان الذي سُرق منه لانه كان من غلاة الفلسفة

فلما عرف الدكتور جيلبار المكان الذي اخذ ولده اليه ترك كل شيء وسار يطلب ولده . وقد عزم على الدخول الى ذلك المنزل من غير الباب لانه كان يريد مقابلة اندري على انفراد

وبينما هو سائر الى المنزل ابصر في طريقه بركة ماء فثارت في نفسه تذكارات قديمة . فانه منذ ١٦ سنة كان ياتي هذه البركة ليبل بها الخبز الذي كان يتفضل به عليه جان جاك روسو وخليلته تريزه ليسد به رمقه . فتنهد جيلبار لهذه الذكرى واغرق في التامل والتفكير

فقال في نفسه . لقد مات روسو . وماتت تريزه خليلته . ولكنني انا لا ازال حياً . وقد صرت رجلاً مشهوراً بعد ان كنت خاملاً فقيراً . ولكن هل انا اليوم اكثر راحة مني بالامس . وهل انا اكثر ثقة بمستقبلي مني بالامس ثم استانف السير وهو يتامل في ماضيه

وكان الدكتور جيلبار يعرف طريقاً للدخول الى منزل اندري من غير الباب وهي الطريق التي دخل منها يوم سرقته الولد في الليلة التي ولدته اندري . ومما ساعده انه لما صار تحت بيت اندري ابصر النافذة التي هي الطريق المشار اليها مفتوحة . وكان الوقت ظلاماً فصعد الجدار على سلم استحضرها لهذا الغرض من مكان قريب كان يعرفه ثم اطل من تلك النافذة

فراى اندري المسكينة مستلقاة على سريرها تبكي بكاء مراً . فعرفها ولكنه عجب من بكائها . ثم انه صعد الى النافذة ودخل منها كما تقدم في الفصل السابق . فاصبح هذان العدوان وجهاً لوجه مرة ثانية

الفصل الثانى عشر

ماذا حدث لسيباستين

ولما وقعت عين أندري على الدكتور جيلبار قام في نفسها امران الاول خوف شديد منه والثاني بغض شديد له · اما الدكتور جيلبار فقد قام في نفسه امر واحد وهو رغبته في تخفيف مصائب هذه المراة التي كان سبباً في شقائها · وكان يود ان يخدمها خدمة او ينفعها بامر ولو اقتضى ذلك المخاطرة بحياته تكفيرًا عن الشر الذي صنعه بها · ولذلك لم يباغتها اول دخوله بالقوة المغنطيسية مباغتة بل ارسل اليها قليلاً منها في بدء الامر ولما صار قريباً منها صرفها عنها فاستراحت اندري حينئذ وصارت قادرة على الكلام. فصاحت بالدكتور · ماذا تريد مني ؟ ومن اين اتيت ؟ ولماذا اتيت ؟ فانحنى الدكتور جيلبار واجاب بهدوء اتيت ياسيدتي من طريق لا يعرفها احد سواي فلا تخشي ان يكون قد رآني احد في دخولي· اما سبب مجيئي فهو طلب ولدي الذي جئت به في مركبتك الى هنا اين سيباستيين

فصاحت اندري بغضب ويأس · لا اعلم لا اعلم · فقد فرَّ مني لانك ما فتئت تعلمه بغض امه

فقال الدكتور أأنت متحققة ياسيدتي انك امه

فبلغ الغضب من اندري مبلغه فصاحت: يرى حزني ويأمي · ويسمع بكاءي · ثم يسالني اذا كنت امه

فقال جيلبار فاين هو · قالت اندري لا اعلم لا اعلم · فانني ادخلته الى هذه الغرفة وبعد مدة طلبته منها فلم اجده ولكن وجدت النافذة مفتوحة

فهال جيلبار هذا الكلام فقال باضطراب · اين ذهب فان الوقت ليل وهو لا يعرف طرق باريز · فاشتد خوف اندري فخطت خطوة نحو جيلبار وقالت متالمة هل تظن انه يصاب بشر

فاجاب جيلبار ستقولين ذلك من فمك ايتها السيدة · ثم مدَّ يده اليها لينومها تنويماً مغنطيسياً

فتراجعت اندري الى الوراء وهي تصيح لا لا بعيشك دعني منه · فقال جيلبار لاتخشي شرًا ياسيدتي فان شخصك مقدس لديَّ وانما اريد ان اسألك في نومك عن ولدك

فتنهدت اندري والقت بنفسها على كرسي هناك وهي تردد اسم سيباستيين بين شفتيها فدنا منها جيلبار ومدّ يده فوق راسها ثم قال • نامي ايتهـا السيدة وانظري بقلبك وانت نائمة • فاجابت اندري وهي تضطرب نمت نمت فقال جيلبار هل استعمل كل قوتي لتجيبي على اسئلتي ام اخففها فتجيبين من تلقاء نفسك • فقالت وهي نائمة اجاوبك ولكن هل تعدني بان تقول لولدي بعد الآن انني امه • قال سارى في ذلك • ولكن هل تحبينه • فقالت (وهي نائمـة) آه يسألني اذا كنت احب ولدي • نعم احبه احبه بكل قوتي • فاجاب جيلبار متنهدًا فانت اذن امه ايتها السيدة كما انني ابوه لانك تحبينه كما احبه

فتنفست اندري الصعداء كأن نفسها ارتاحت لهذ االقول

فقال جيلبار فجاوبي اذًا طوعًا واختيارًا من غير اكراه • فقالت اندري نعم اجاوب طوعًا واختيارًا ولكن هل تعدني بان اراه بعد الآن • فقال جيلبار اما قلت لك انك امه والام يجب ان ترى ولدها • فقالت اندري بفرح عظيم شكرًا لك سلني الآن فاني مستعدة للمجاوبة •• ولكن • فقال جيلبار لكن ماذا • قالت يجب ان اتبعه من اول مجيئه من القصر لاكون على ثقة من ان لا يفوتني اثره • فقال جيلبار لا باس بذلك فاستعدي للجواب • ثم اخذ جيلبار يسالها وهي نائمة عما حدث لسيباستيين وهي تجيبه كانها حاضرة معه • فسالها اولاً • اين نظرته لاول مرة قالت في القاعة الخضراء قال الى اين لحق بك قالت الى المركبة قال الى ايّ مكان اخذته في المركبة قالت الى هذا المنزل قال ولماذا ادخلته الى هذه الغرفة قالت لانني سمعت صوت مركبة وقفت امام الباب قال فمن كان في هذه المركبة قالت الكونت دي شارني قال وماذا قال لك الولد حين دخوله الى هذه الغرفة قال لي انني لست بامه • فسالها جيلبار في الحال ولماذا قال لك ذلك فسكتت اندري ولم تجاوب فقال جيلبار سالتك فاجيبي ايتها السيدة هكذا اريد فتململت اندري واضطربت لان جيلبار قوّى المجرى المغنطيسي عند لفظه هذه الكلمة « هكذا اريد » واجابت • قال لي ذلك لانني قلت له • ثم سكتت • فقال جيلبار ماذا قلتِ له تكلمي • فاستجمعت اندري قواها وصاحت لانني قلت له انك شقي لئيم

فقال جيلبار انظري الآن ايتها السيدة الى اعماق نفس ابنك لتعلمي مبلغ العذاب الذي عاناه حين قولك هذا القول عن ابيه • فبهتت اندري هنيهة كانها تنظر في نفس ابنهـا ثم صاحت بغتة ويلاه كم تعذب الولد لكلامي عفوًا يا بني وصفحًا

فسالها جيلبار هل علم الكونت دي شارني بوجود الولد هنا قالت كلا قال فلماذا لم

يبت هنا هذه الليلة قالت لان المسيو دي شارني لا يبيت عندي قال فلماذا جاء اذاً فسكتت اندري هنيهة كانها تنظر عن بعد في ضمير المسيو دي شارني لتعلم السبب الذي جاء به اليها في هذه الليلة ثم صاحت بغتة ويلاه ما اشد تعاستي فقال جيلبار ماذا . قالت كان الكونت دي شارني قادماً اليّ . . كان يطلب الاقامة عندي فلم افهم ذلك . بل تركته يذهب ساخطاً . هو يحبني هو يحبني

فابتدأ جيلبار يقف منذ الآن على غوامض مسالة لم يكن احد قد وقف على شيء منها قبله . فسالها وانت هل تحبينه . فسكتت اندري فاعاد جيلبار سؤاله قولي هل تحبينه فسالته اندري لماذا تسالني هذا السؤال . قال انظري في ضميري لتعلمي سبب ذلك فبهتت اندري كانها تقرأ في ضميره ثم قالت علمت علمت . ان قصدك حسن . فانك تود خدمتي وصنع الخير معي تكفيراً عن الشر الذي صنعته ولكنني انا ارفض كل خير وسعادة تاتيني على يدك لاني اكرهك واود البقاء على كراهتك

فقال جيلبار حينئذٍ في نفسه : مسكينة انت ايتها الانسانية . هل لديك كثير من طرق الراحة والسعادة حتى يجوز لك ان تختاري ما تريدينه منها . ثم سالها . اذاً انت تحبينه قالت نعم احبه . قال متى ابتدأ حبك له قالت منذ رايته للمرة الاولى . منذ سار من باريز الى فرساليا في مركبة الملكة . فقال جيلبار متنهداً . اذاً عرفت الحب يا اندري قالت نعم عرفت الحب وهو لم يعطَ للانسان لكي يتمتع به ويسر ولكن ليعلم من مقداره مقدار ما يقابله من الحزن والالم في هذه الحياة . فاحتدم عند ذلك جيلبار وقال لقد عرفتِ الحب يا ذات القلب الصخري عرفت عذابه وشقاءه فانا مسرور بذلك . فلنعد الآن الى الولد فقالت نعم لنعد الى الولد ولكن لا تذكر لي المسيو دي شارني ولا تدعني اذكره فان ذلك يقلقني وربما تركت حينئذ ولدي واقتفيت اثار الكونت . فقال جيلبار اذكرى ولدك ايتها الام ولا تذكرى زوجك . فانبسطت حينئذٍ اسرة اندرى وتلاشت لوائح العناء التي كانت على وجهها من ذكر حب الكونت زوجها . فسالها جيلبار اين كان الولد حين محادثتك مع الكونت فاجابت اندري كان هنا . هنا على الباب ينصت الى كلامنا قال ماذا سمع منه قالت قد سمع كل القسم الاول قال فمتى عزم على الفرار من الغرفة . قالت عزم على ذلك حينما . . . وسكتت

فسالها الدكتور بشدة ومن غير شفقة حينما ماذا . فاجابت حينما اخذ المسيو دي شارني يدي وقبلها فصحت صيحة خفيفة فقال جيلبار وماذا حدث لسيباستيين عند ذلك قالت هو ذا

اراه مقطب الحاجبين مشمر الشفتين غضباً وحنقاً واحدى قبضتيه مطبقة بتشنج على صدره كأنه يتهدد بها

فقال جيلبار اتبعيه الآن واجعلي كل همك مقصوراً على اقتفاء اثره واياك ان تتركيه. هل ترينه قالت اراه اراه. قال ماذا صنع بعد ما ذكرت قالت اخذ يفتش عن باب مشرف على الحديقة للخروج منه ولما لم يجد باباً ذهب الى النافذة بنزق ففتحها ثم نظر النظرة الاخيرة الى القاعة حيث كنت مقيمة وخرج من النافذة. فقال جيلبار اتبعيه في الظلام فقالت لا اقدر فدنا منها جيلبار وامرَّ يده على عينيها وقال انظري حتى في الظلام ايتها السيدة. فتنفست اندري الصعداء وقالت هوذا قد وجدته.. لقد سار نحو شارع بلاتريير.. ها هوذا يخاطب امرأة

فقال جيلبار اصغي جيداً ماذا قال لها قالت لقد سألها عن شارع سان اونوره. فتنهد جيلبار وقال هناك منزلي فلا بدَّ ان يكون قد وصل اليه لينتظرني فيه. فسكتت اندري هنيهة ثم قالت بهيئة تدل على القلق. لا لم يصل اليه.. كلا هو لا ينتظر الآن فسألها فاين هو اذاً قالت دعني اقتفي آثاره والا تهت عنه

وقد قالت اندري هذا القول بلهجة الخوف كمن يتوقع حدوث مصاب. فخاف جيلبار لخوفها وقال اتبعيه اتبعيه واياك ان تتخلي عنه. فتنهدت اندري وقالت آه. ها انذا اراه فقال جيلبار ماذا يعمل قالت انه سائر في طريقه. لقد وصل الى شارع باله رويال.. هوذا يسأل ثانية عن شارع سان اونوره.. لقد اسرع في طريقه.. وصل الى شارع ريشليه.. الى شارع فروندور.. الى شارع نوفسان روش. آه قف ايها الولد التعيس قف واجتنب هذه الحادثة.. اما ترى المركبة القادمة من طريق سوردبير.. انا اراها واخشى عليك منها. آه. آه

ثم صرخت اندري صراخاً هائلاً. صراخ ام ترى ولدها يتمزق تحت عجلات المركبة فتحلب الدمع من عينيها من شدة الخوف وتحلب العرق من جبينها من شدة المغنطيسية فامتزج ماؤهما

فجزع جيلبار وخاف اشد خوف ثم قال لها بغضب — اذكري ايتها السيدة ان الولد اذا اصابه شر فالشر يقع على رأسك لانك كنت السبب

اما اندري فانها عادت وتنفست الصعداء بانبساط وارتياح دون ان تسمع ما قاله جيلبار ثم قالت مبارك اسم الله. قد نجا. قد نجا. فان صدر الجواد صدمه وازاحه قبل

ان يسقط من طريق المركبة · ولكنه سقط على الارض مغمى عليه ·· آه بدون حراك ولكنه غير ميت · نادوا من يغيثه · المعونة المعونة · اغيثوا ولدي اغيثوا ولدي

ثم صاحت اندري صيحة هائلة وسقطت مغمى عليها

فخاف جيلبار ان ينقطع شريان في دماغ المراة او في قلبها من شدة ضغط المغنطيسية عليها ولذلك لم ينبهها بالرغم عنها · ولكنها لم تلبث ان انتبهت من تلقاء نفسها تطلب ولدها فسالها جيلبار انظري ماذا جرى له · فقالت اصبر عليَّ قليلاً فانني اكاد اهلك من التعب والجزع · هاءنذا ارى ازدحاماً شديداً حوله · ابعدوا ابعدوا · افسحوا لي طريقاً ياناس · انا امه · انا ام سيباستيين المطروح على الطريق · قولوا لي اليس فيكم رجل جراح

فما سمع الدكتور جيلبار هذا الكلام حتى صاح بها هاءنذا ذاهب اليه · فقالت اندري وقد امسكت به من ذراعه لا لاتذهب · بل اسمع الآن · هوذا الجمع قد تفرق عنه · فلا بد ان يكون قد حضر رجل استدعوه لمعالجته · تعالَ تعالَ ايها الرجل · هو لم يمت ولكن قل لي ايمكن انقاذه

ثم صاحت صيحة عظيمة واخرجت تنهداً هائلاً من اعماق صدرها

فاجفل الدكتور جيلبار واضطرب ثم سالها ماذا حدث ماذا حدث فصاحت اندري بغضب · حدث انني لا اريد ان يمدّ هذا الرجل يده الى ولدي · لا اريد ان يعالجه · قزم شنيع كالافعى يالله كم امقته

فقال لها جيلبار دعيه ايتها السيدة ولا تتركي سيباستيين بعينك · فقالت اندري لا تخف لا تخف وكيف اترك ولدي · فقال جيلبار ماذا صنع به هذا الرجل قالت لقد حمله بين ذراعيه ثم سار في شارع سوردبير · دخل الى اليسار في طريق سان ياسنت ودنا من باب واطىء كان مفتوحاً قليلاً · دفع الباب · انحنى · نزل في السلم · وضع الولد فوق مائدة عليها اقلام واوراق بعضها خطية وبعضها مطبوعة · لقد اخذ يجرد ذراع سيباستيين · شدّها بلفائف جاءته بها امراة قذرة شنيعة مثله · لقد فتح علبة اخذ منها آلة جراحية آه · لقد عزم على فصد الولد · آه انني لا اطيق رؤية دماء ولدي

فقال لها جيلبار اخرجي الآن من ذلك المكان وعدي درج السلم التي نزلها الرجل فسكتت اندري هنيهة كانها صنعت ما قاله لها الدكتور ثم قالت عددتها فاذا هي ١١ درجة فقال صفي لي الآن خارج المكان لاعرفه قالت ان الباب يؤدي الى قبو تحت الارض وفوق الباب نافذة صغيرة فيها قطعتان من الحديد بشكل صليب قال جيلبار مستعداً

للسير كفى فانني صرت قادرًا على معرفة المكان فاستعدي لانبهك ولكن قولي لي اولاً هل تريدين ان تنتبهي غدًا صباحًا دون ان تذكري شيئًا مما جرى ام تريدين الانتباه الآن مع ذكر كل شيءٍ. قالت بل افضل الانتباه الآن وذكر كل شيءٍ

فدنا منها جيلبار حينئذ واخذ ابهاميه فامرّهما على حاجبي اندري بحسب تقوسهما ثم نفخ في جبهتها ولفظ هذه الكلمات فقط

— انتبهي ايتها السيدة

فدبّت الحياة حينئذ في عيني اندري وعاد لهما نظرهما الاعتيادي فنظرت الى جيلبار من غير خوف ثم ذكرت ولدها وما اصابه فصاحت بالدكتور قائلة : اسرع اسرع اليه وانقذه من يدي ذلك الرجل الذى يخيفني

فخرج جيلبار مسرعًا يطلب ولده من المكان الذي دلته عليه اندري في نومها المغنطيسي

الفصل الثالث عشر

الرجل القذر الشنيع

وفي خروج جيلبار من منزل اندري اخذ يعيد في فكره الشوارع التي ذكرتها اندري في نومها فذكرها كلها وسار في وجهتها

وما زال سائرًا مسرعًا حتى وصل الى الشارع الذي ذكرت ان فيه قبو الرجل القذر الشنيع فنظر جيلبار الى الغرف السفلية التي هناك فابصر باب غرفة على الشارع وفوقها العلامة التي ذكرتها اندري فلم يبقَ عنده ريب في ان هذا المنزل هو المنزل الذي يقصده فدنا منه وقرع الباب فلم يجاوبه احد فقرعه مرة ثانية فسمع حينئذ صوت اقدام تختلس في المكان فقرع مرة ثالثة فسمع امراة تقول من الداخل من يقرع الباب فقال جيلبار انا لا تخافي وافتحي لي فانني ابو الولد الذي عندكم

فقال حينئذ رجل من الداخل افتحي افتحي يا البرتين فهذا الدكتور جيلبار. فنادى حينئذ صوت ثالث بقوله يا ابي يا ابي. وكان هذا الصوت صوت سيباستيين

فتنفس جيلبار الصعداء حينما سمع صوت ابنه

وحينئذ انفتح الباب فاسرع الدكتور في نزول السلم فوجد في فناء المكان مائدة عليها ولده وهو يمد ذراعيه اليه فبادر اليه جيلبار وقبله ولاطفه

فقال الرجل الذي كان في المكان الى المراة اشكري يا البرتين الصدفة التي جعلتني

انفع احد « اخوتي »

وقد عنى بقوله اخوتي اعضاء الجمعيات الماسونية التي كان لها في فرنسا في ذلك الزمان شأن عظيم حتى ان كثيرين يعزون اليها اقامة الجمهورية كما سيرد ذلك مع تفصيل حفلاتها وعاداتها وذكر خطبها

ولما قال الرجل هذا القول التفت جيلبار ليرى الرجل الذي انقذ ابنه . فوقع نظره على رجل قزم ذي وجه اصفر اللون اخضره بعينين رماديتين كانهما تخرجان من راسه كما يقول العامة . وقد كان كريه المنظر شنيع الصورة كانه انسان اخذت الطبيعة تمسخه قرداً فلا هو انسان تام ولا قرد تام

فاقشعر جلد جيلبار لهذا المنظر بالرغم عنه لا سيما وانه ذكر انه يعرف هذا الرجل لانه نظره في يوم دموي من ايام الفتنة ولكنه لم يذكر ذلك اليوم

غير انه بالرغم عن كراهته لمنظر ذلك الرجل قهر نفسه ودنا منه ليقوم بواجب شكره على انقاذه ابنه . ولما صار قريباً منه قال له اشكرك ياسيدي على انقاذك ولدي وهذا الشكر يقدمه لك اب من اعماق قلبه

فاجاب الرجل انني لم اصنع سوى ما يجب عليّ ياسيدي فانني انسان والانسان كما قال ترانس يجب عليه ان يساعد الانسان في كل شؤونه وفضلاً عن ذلك فانني رقيق القلب لا استطيع رؤية حشرة تتالم فكيف الانسان . فقال جيلبار هل تتفضل عليّ ياسيدي بمعرفة اسمك فقال الرجل ضاحكاً ضحكاً مخيفاً كيف لا تعرفني ايها الرصيف فانني انا اعرفك . انت الدكتور جيلبار صديق واشنطون ولافاييت ولما ذكر الرجل اسم لافاييت شدّ عليه قصداً ثم قال — نعم انت صديق لافاييت رجل فرنسا واميركا صاحب الاحلام والاوهام انت الذي كتبت للملك تقريراً عن الحالة السياسية في فرنسا فجزاك الملك بسجنك في الباستيل مكافأة على جميلك

ثم ضحك الرجل ضحكاً شنيعاً ترتعد له الفرائص اما جيلبار فقال اذا كنت تعرفني ياسيدي فقد زدتني رغبة في معرفة اسمك

فقال الرجل عرفتني وعرفتك منذ زمن بعيد ياسيدي فانك جئتني منذ عشرين سنة في ليلة هائلة هي ليلة ٣٠ مايو من سنة ١٧٧٠ جريحاً كما جاءني ابنك وكنت يومئذ بعمر مساوٍ لعمره اما الذي جاء بك الي فهو معلمي ومعلمك جان جاك روسو فقصدتك على مائدة محاطة بجثث الموتى والاعضاء المبتورة وقد عالجت كثيرين غيرك في تلك الليلة

فقال جيلبار حينئذ · اذن عرفتك فانت جان بول مارات (١)

قال جيلبار ذلك ثم رجع الى الوراء مجفلاً

اما الرجل الذي سماه جيلبار مارات وقد تقدم ذكره في نهضة الاسد الجزء الاول فقد اخذ يضحك ضحكاً شنيعاً ثم قال للمراة · ارأيت يا البرتين كيف يؤثر اسمي في نفوس الناس ثم ازداد ضحكاً فقال له جيلبار كنت اعهدك طبيباً للكونت دارتوى فقال مارات بيطرياً لخيله لا طبيباً وقد هجر الامير فرنسا في جملة الذين هجروها فتركت خدمته · وهبه موجوداً فانني لا اخدمه لانني اكره الظالمين

ولما قال مارات هذا القول انتصبت قامته القصيرة بعظمة وكبرياء اظهاراً لانفته

فقال له جيلبار ولماذا تقيم في هذا القبو فاجاب مارات تسالني لماذا اقيم في هذا القبو ايها الفيلسوف ذلك لانني رجل محب لوطنه لانني اكشف الغطاء عن طمع الطامعين لان بالبي يخافني وناكار يغيظني ولافاييت يقتفي اثري آه من لافاييت الطامع المستبد الراغب في اغتصاب السلطة لقد خصص جائزة بمن ياتيه براسي ولكنني لا اخشاه بل اشكوه اشكوه في كل يوم من اعماق هذا القبو · قال وكيف تشكوه قال اشكوه في جريدتي في الجريدة التي انشأتها وسميتها « صديق الشعب » وقد اصدرت منها الى الآن ٢٠ عدداً وقد بعت كل اثاث منزلي للقيام بنفقات الاعداد الاولى منها انظر الفراش التي حولك

فنظر جيلبار فوجد ان الفراش بلا اغطية لان مارات باعها وكان سيباستيين ينام على فرشة بلا غطاء ايضاً

فالتفت جيلبار الى مارات وساله واين مساعدوك في جريدتك

فضحك مارات واجابه تسالني عن مساعدي في عملي ولكن اتجهل ان الزراز ير هي التي تطلب الاجتماع والرفقة وانه لا يطير وحده غير النسر · تسالني عن مساعدي فاليك مساعدي

قال ذلك ثم اشار الى راسه ويديه

وبعد هنيهة قال

هذه المائدة التي تراها امامك هي معمل الاله فولكان المعمل الذي تصنع فيه الصواعق



(١) جان بول مارات — اشد رجال الثورة تاثيراً على العامة وقد ورد ذكره في نهضة الاسد الجزء الاول الصفحة وفي هذا الفصل احسن وصف لاخلاقه

فانني في كل ليلة اكتب عليها ثماني صفحات كبرى لتباع في الصباح · وقد تكون الثماني الصفحات غير كافية فاضيف اليها ثماني اخرى وكثيرًا ما اتم باحرف صغيرة المقالات التي ابدأها باحرف كبيرة· كل الصحافيين يساعدون بعضهم بعضًا و يشتركون بعضهم مع بعض اما انا فلا اريد ان يساعدني احدولذلك اعتبر ان جريدتي ليست بجريدة ولكنها انسان· هي انا لانها ثمرتي وحدي

فساله جيلبار مدهوشًا وكيف تستطيع ان تقوم وحدك بكل هذا العمل

فاجاب مارات هذا سرٌ من اسراري هذا اتفاق معقود بيني و بين الموت فاننا تعاهدنا على ان اعطيه عشر سنوات من عمري ليجعلني قادرًا على القيام بالعمل الذي اعمله الآن ولذلك اعطاني نهارًا لا استريح فيه وليالي لا انام فيها فاصبحت معيشتي محصورة في هذه الكلمة : الكتابة الكتابة ليلاً ونهارًا ومما ساعدني على ذلك ان بوليس لافاييت يفتش عني فصرت مضطرًا الى الاختباء منه وعدم الخروج من مخباءي وقد وجدت هذه المعيشة في بدء الامر ثقيلة ولكنني ما لبثت ان تعودتها فانه صار يلذ لي ان الح من ثقب الباب في ظلمات هذا القبو الهيئة الاجتماعية التعيسة الشقية التي هي في الخارج ومن اعماق هذه الظلمات التي انا اعيش فيها احكم على عالم الاحياء في تلك الهيئة· وحكمي يشمل عالمين عالم العلم وعالم السياسة ومتى حكمت كان لا مرد لحكمي اي لا استئناف ولا نقض او ابرام · بيدِ اهدم اعمال نيوتن وفرنكلين ولبلاس ومونج ولفوازيه و بالاخرى ازعزع باليي وناكار ولافاييت وساهدم هذا كله ساهدمه كما هدم شمشون الجبار الهيكل واذا دفنت تحت جدرانه الساقطة دفنت الملكية معي

فارتعدت فرائص جيلبار بالرغم عنه لان هذا الرجل كان يكلمه في قبوه الحقير كما كلمه كاليوسترو في قصره الكبير · فراعه ان تكون هذه الافكار مشتركة بين الكبار والصغار وساله لماذا لا تدخل المجمع الوطني لتقول فيه ما تريد ان تقوله فقال مارات لانه لا يوجد لدي بضعة الوف من الرجال يشدون ازري و ينتخبونني للدخول اليه · هذا مع كل شهرتي وحب الشعب لي· ولكنني غير عابىء بالمجمع بل انني اشتغل كما ذكرت لك كالنسر وحدي واكون في هذه الحالة اشد تاثيرًا على الشعب الذي يتبعني وانا الآن ذو تاثير عظيم عليه وقد قلت في العدد الاول من جريدتي «صديق الشعب» انه يوجد في فرنسا ٦٠٠ رجل يجب شنقهم لنخلص من جرائمهم وخيانتهم فتحسن الحال و يزول كل خلل ولكنني ما لبثت ان عرفت خطاءي بعد ليلتي ٥ و٦ اكتوبر فانه يجب شنق عشرة الاف رجل من

الاشراف بل عشرين الف رجال لا ستمائة رجل ليعم السكون و يعود النظام

فاجاب جيلبار ضاحكاً ولكن احذر يامارات فانك اذا اردت شنق كل هؤلاء الناس لم تجد في فرنسا حبالاً كافية لذلك

فضحك مارات ضحكاً هائلاً وقال ما احسن هذه الكلمة التي قلتها فانها تنقلنا من حديث الى حديث كنت على عزم الانتقال اليه . اعلمت ايها الدكتور ماذا نصنع الآن لنقدر على اعدام المجرمين مهما كثر عددهم بسهولة وفي وقت قصير فاجاب الدكتور كلا قال ان صديقي الدكتور كليوتين يصنع آلة ما اسهل الموت فيها وقد جئت في حينك فانه لا يلبث ان يحضر الى ههنا لتجربة هذه الآلة وقد وصفها لي الدكتور كليوتين فقال ان الانسان يموت بها بكل راحة وسهولة فان سكينها تقطع العنق كلمح البصر فلا يشعر الانسان الا بقليل من البرودة في عنقه الا تريد مشاهدة هذه الآلة معي

فاقشعر جلد جيلبار هنا ايضاً لانه ذكر ما قاله له كاليوسترو عن آلة الدكتور كليوتين (التي هي الكليوتين آلة الاعدام في الثورة) ولكن لم يذهب اضطراب جيلبار حتى قرع باب القبو فقال مارات ضاحكاً ها قد جاء صديقي الدكتور كليوتين صاحب الاختراع العظيم افتحي له يا البرتين

فذهبت المراة وفتحت له فدخل كليوتين فاذا هو رجل في الخامسة والاربعين من العمر هادىء الهيئة لطيف المنظر خلافاً لمارات وكان يحمل في يده علبة كالعلب التي تتضمن لعب الاولاد

فسلم الدكتور على مارات وعلى جيلبار الذي كان متشاغلاً بابنه فساله مارات ما بيدك يادكتور فقال كليوتين هذا مثال الآلة جئت لاريك اياه

وكان يُسمع من داخل العلبة حركة فساله مارات ما هذه الحركة التي تُسمع من داخل العلبة فضحك كليوتين وقال هؤلاء هم المجرمون الذين سنعدمهم امامك فان الآلة الكبيرة تعدم البشر والآلة الصغيرة تعدم الفئران

فاشار جيلبار حينئذٍ الى ابنه بالنهوض ليحمله و يذهب به فساله مارات مالك يادكتور الا تحضر التجربة فقال جيلبار لا اقدر ياسيدي بل يجب ان اذهب لاعتني بولدي فقال مارات ولكن هل تعدنا بانك تحضر تجربتها الكبرى حين الاحتفال بها فقال جيلبار اعدك بذلك فقال مارات ولي اليك وصية اخرى قال ماذا قال ان تكتم اسم منزلي فانك تعلم ان بوليس لافاييت يقتفي اثري فقال جيلبار كن مستريح البال من هذا الوجه

ثم حمل جيلبار ابنه وخرج من منزل مارات بعد ان ودعه وودع الدكتور كليوتين زائره

ولما خرج جيلبار الى الشارع اخذ يتامل ويقول في نفسه «ما ادراني انه لا يوجد الآن في باريز خمسمائة قبو كهذا القبو يشتغل فيها اصحابها بمثل ما يشتغل به هذا الرجل؟ وماذا يحدث في المدينة يوم تبرز اعمال هولاء الناس المستترين الى حيز الوجود»

الفصل الرابع عشر

عود الى بيتو وكاترين

ولما وصل جيلبار الى منزله وهو يحمل ابنه بين ذراعيه طرق الباب فنادى صوت من الداخل من الطارق فدهش جيلبار لهذا الصوت لانه علم انه صوت صاحبنا انج بيتو فاجابه الدكتور انا افتح ففتح بيتو البلب ولما ابصر سيباستيين بين ذراعي ابيه تنفس بيتو الصعداء وقال وجده والحمد لله

اما السبب في عودة بيتو الى باريز فاليك بيانه

تركنا بيتو في ختام الجزء الثاني من نهضة الاسد واقفاً بازاء جثة كاترين التي وجدها بلا حراك في قارعة الطريق وفي اليوم التالي لهذه الحادثة رأى بيتو ان آماله ذاهبة ضياعاً فازداد حزناً ولكنه عزم على اطلاع بيلو والد كاترين على هذا الامر وقد ساعده على ذلك اختفاء سيباستيين

فان بيتو حضر في ذات ليلة الى غرفته وبعد ان اوقد شمعة راى على نورها الضعيف كتاباً موضوعاً على المائدة وعنوانه باسمه ففتحه فراى انه هو الكتاب الذي كتبه اليه سيباستيين يطلعه فيه على امر سفره الى باريز للسؤال عن ابيه

فقال بيتو هذا الامر لانه خاف من ان يضل الولد السبيل وعجب من اقدام هذا الولد على السير في الليل ولكنه لم يتردد دقيقة واحدة في العزم الذي عزم عليه بعد مطالعة هذا الكتاب فانه نهض في الحال واقفل باب الغرفة ثم اطلق ساقيه للريح على طريق باريز لعله يلتقي بسيباستيين

وكان يسير وهو يفتش عنه في نظره في كل جانب ولكن سيباستيين كان قد ركب على جواد المسيو ايزيدور دي شارني كما تقدم ولذلك لم يستطع بيتو ان يلحق به

وما زال بيتو سائرًا حتى وصل الى باريز فقصد منزل الدكتور جيلبار على عجل وسأل عن سيباستيين فقيل له انه لم يأتِ اليه فاشتد خوف بيتو على اخيه في الرضاع ولبث يتقلب في البيت على مثل الجمر وهو ينتظر عودة الدكتور جيلبار

ومن حسن الحظ ان الدكتور عاد وبين يديه سيباستيين فتنفس بيتو الصعداء حين مشاهدته واستراح باله · اما الدكتور جيلبار فلما علم بقصة بيتو تحركت له احشاؤه حنوًا عليه وارتياحًا من عمله فمد يده اليه وصافحه شكرًا على غيرته وامانته

ولما هدأت خواطر الجميع اشار جيلبار لبيتو ان يذهب ويستريح في فراشه فان الركض كان قد اتعبه فقام بيتو شاكرًا ولكنه في قيامه طلب من بيلو ان يلحق به ليقول له كلمة في غاية الاهمية

فقام بيلو وتبع بيتو الى غرفة هناك واختليا فيها

وكان بيتو لشدة قلقه على سيباستيين قبل وجوده قد نسي امر كاترين والمزرعة فلم يقل عنها لبيلو شيئًا ولكنه سكن خاطره بكلام مبهم ووعده بان يزيده بيانًا متى هدأت الخواطر

فلما انفرد بيتو به ساله بيلو عن المزرعة والعيلة فحدثه بيتو ربع ساعة ثم افترقا

اما الدكتور جيلبار فلما استقر به المكان كتب لاندري هذه الكلمات « لقد وجدت الولد سالمًا معافى » ثم بعث بها الى صندوق البريد مع خادمه لتصل اليها في الصباح

وفي اليوم التالي نهض جيلبار ليذهب الى قصر الملك اذ جاءت نوبته فوجد بيلو ينتظره ولوائح الانقباض على وجهه · فسأله الدكتور ما بك يا بيلو · فاجاب بيلو انني اقيم في باريز على حين ان الحالة سيئة جدًا في مزرعتي

ولا يحسبنَّ القارىء ان بيتو اطلع بيلو على كل ما يعلمه عن كاترين لانه لو فعل ذلك لاضاع صواب ذلك الزارع الشريف الاخلاق · ولكنه اكتفى بان يقول له ان المواشي مهملة والحقول خربة والحاصلات تناقصت وانه وجد في مساء يوم كاترين مغمى عليها في قارعة الطريق

وكان بيلو نبيهًا فعلم ان ابنة قوية رابطة الجأش مثل كاترين لا يغمى عليها في قارعة الطريق الا لاسباب خصوصية

وحينئذٍ عزم على السفر في الحال الى مزرعته ليصلح الخلل الذي حدث فيها مدة غيابه

وكان جيلبار قد ذاق في ليل امس طعم العذاب الذي يعانيه الآباء بشأن اولادهم فاصبح اكثر رأفة بقلب بيلو ولذلك اذن له بالسفر على شرط ان يحضر اليه اول ما يدعوه اذا اضطر الى استدعائه . فاجاب بيلو متى اردتني فقل كلمة واحدة أكن عندك في يوم واحد

ثم ان بيلو قبل سيباستيين وودع الدكتور فودعه الدكتور وشكره على اخلاصه ووداده ثم ودع جيلبار بيتو ووضع في يده ٢٥ ذهباً هدية له لينفقها في شراء ملابس واسلحة لحرس هرامونت الذي كان هو قائده . ثم سار بيلو وبيتو عائدين الى المزرعة اما سيباستيين فانه بقي عند ابيه

الفصل الخامس عشر

هدنة وقتية

ولنعد الآن بالقاريء الى قصر التويلري حيث اقام الملك والملكة بعد عودتهما من فرساليا

فيا ما اشدك هولاً يا ايها التويلري . يا قصراً سكنته الملكة التي امرت بمذابح سنت برتلماي . يا قصراً يجتذب الملوك اليه ليفترسهم او لينبذهم منه نبذ النواة . فبعضهم يخرجون منه بلا رؤوس والبعض يخرجون بلا صولجان ليشردوا في بلاد الله

يا قصراً هائلاً من يجترئ ان يدخل اليك بعد ارسالك لويس السادس عشر ونابوليون وشارل العاشر ولويس فيليب بعضهم الى النفي وبعضهم الى الاعدام

كل هؤلاء قد دخلوا اليك والشعب يهتف لهم ويفرح بدخولهم . كل هولاء لما دخلوا اليك كانوا في اقصى درجات المجد والسعادة . فلماذا لم تجعلهم يحتفظون مراكزهم . ذلك لانهم اخذوا يعملون لانفسهم لا للشعب فقام الشعب وطردهم منك كما يُطرد من مزرعة زارع ولي شانها ليصلحها فافسدها

وفي اليوم التالي لوصول الملك الى التويلري اشرقت الشمس على باريز ساطعة لامعة فتزاحم الشعب حول التويلري فرحين مسرورين بان ملكهم عاد اليهم واخذوا يرقبون الملك ويفتشون عنه فكان كلما لاح لبعضهم يشيرون اليه بالاصابع مبتهجين مسرورين

ولما انتصف النهار طلب الشعب الملك نظهر له الملك من احدى شرف القصر فصفقت

له الالوف التي كانت هناك تصفيقاً عاماً بياناً لاستحسانها وسرورها

وفي المساء اضطر الى النزول للحديقة اكراماً للشعب فلم يكتفِ الشعب حينئذٍ بالاستحسان والهتاف بل بكى من فرحه وسروره

فقالت مدام اليزابت التي كانت بازاء الملك . يظهر لي انه ليس من الصعب الحكم على هذا الشعب اللين المراس

وهكذا ظهر لكثيرين ان النار التي كانت متقدة قد خمدت وان الثورة آخذة بالهمود وما علموا انها هدنة وقتية ليتعارف في اثنائها الحزبان ثم يعودان الى النزاع والاهوال باشد مما كان

ومع ذلك فان خواطر العقلاء واصحاب النفوس الابية كانت قد بدأت تستنكر عمل الشعب بعد هجومه على فرساليا . وقد خاف المجمع الوطني من ذلك اشد خوف لانه كان يرى ان وجوده متوقف على وجود الملك وسلطته متوقفة على سلطته فاذا سقط الملك سقط المجمع . ولذلك اراد ميرابو خطيب المجمع الاكبر وضع حد للهياج واللجاج

اما لافاييت فانه ازداد بعد الهجوم على فرساليا تمسكاً بالملك والملكية . ولكنه كان لا يثق بميرابو . فلما جاءه ميرابو يقول له « فلنتحد ولننقذ الملك » لم يفهم لافاييت هذا الكلام ولم يعبأ به . بل ذهب لساعته الى الدوق دورليان الذي كانوا يقولون انه عدو الملكة ومحرض الشعب عليها وقد قصد بزيارته هذه ان يبعده من باريز لعل ذلك يسكن الخواطر ويبطل التحريض

فقابل لافاييت الدوق وطلب اليه ان يرحل من فرنسا فاجابه لا استطيع ذلك لانني امل الحياة خارجاً . فقال لافاييت ولكننا يامولاي محتاجون الى سفرك . فقال الدوق ولكن الى كم من الزمن . قال الى اجل غير مسمى اي الى ان استدعيك يامولاي فقال وان عدت ياجنرال دون ان تستدعيني . فاجاب لافاييت ان عدت دون ان استدعيك يامولاي فانني اسألك حينئذٍ ان تتناول سيفك وتبارزني

فسافر الدوق دورليان ولم يعد حتى استدعاه لافاييت

الا ان الملكة كانت وسط فرح الشعب وسروره ممتلئة النفس حزناً والماً . اولاً لانها فقدت حب حبيبها شارني وثانياً لانها رأت ان يد الشعب اصبحت فوق يدها . ولذلك لم تفرح لفرح الشعب ولم تقدر ان تحبه . ولو كان شارني بجانبها يعزيها ويخرج عقرب الحب التي كانت تعذبها في نفسها فربما كانت قدرت على ان تحب الشعب وتفرح لفرحه

وفي ذات يوم اجتمع فاتحو الباستيل وسألوا الملكة ان تقابلهم فرفضت ذلك · فكان لرفضها اسوأ تأثير

ثم اجتمعت كثيرات من النساء وطلبن مقابلتها فاذنت لهن بذلك ولكنها لم تقرب منهن عند المقابلة بل ابقت بينها و بينهن سلالاً كثيرة موضوعة في القاعة · فتجاوز النساء السلال وان لم يكن ذلك من حقهن واقتربن من الملكة

وكانت العادة ان تخطب واحدة من النساء فانبرت احداهن وقالت انني ارجو من جلالة الملكة ان تسمع لي نصيحة · فقالت الملكة وما هي · فقالت المرأة ان تبعد جلالتك من حولك جماعة المتزلفين الذين يكرهون الشعب اليك وان تحبي البار يزيين ياسيدتي فانهم لم يروك منذ عشرين سنة قضيتها في فرنسا سوى اربع مرات

فاجابت ماري انطوانت بهيئة خطيرة · تقولين هذا القول ايتها السيدة لانك لا تعرفين قلبي · فانا احببت البار يزيين في فرساليا كما احبهم الآن

فاجابت امرأة ثانية على الفور · هل من الحب ان تاوري الجنود بمحاصرة البار يزيين في ١٤ يوليو و باطلاق المدافع عليها · هل من الحب ان تهتمي في ١٦ اكتوبر بالهرب الى الحدود بحجة انك ذاهبة الى تريانون

فقالت الملكة هل صدقتم هذه الاشاعات الكاذبة التي يذيعونها

وفي المساء جلس الملك والملكة ومدام اليزابت يتحادثان و يذكران حوادث النهار وكان ولي العهد واقفاً بازائهم فاخذت الملكة تذكر للملك كلمة قالها ولي العهد حين دخول النساء عليها · فانه قال «ما هذا يا اماه هل يحدث اليوم ما حدث امس» يعني هجوم الشعب على قصر الملك في فرساليا

فلما سمع ولي العهد انهم يتكلمون عنه صار يعجب بنفسه ككل ولد يجد أن اهله او الناس يهتمون به فتقدم من الملك ابيه واخذ يتأمل في وجهه و يفتكر فقال له الملك · ما لك يالويس · فقال الولد اود يا ابتِ ان اسالك سوءالاً جدياً · فاخذ الملك الولد اليه وقال له سل ماذا تريد · فقال الولد اريد ان اعرف لماذا غضب شعبك منك مع انه يحبك وماذا عملت حتى اغضبته

فالتفتت الملكة الى الولد وقالت له بلهجة التوبيخ لويس ما هذا

فقال لها الملك دعيه فانني ساجاوبه جواباً يستطيع فهمه ثم قال للولد

« انني اردت يا بني ان انفع الشعب واجعله اكثر سعادة وهناء فاحتجت لذلك الى

المال لان مال الخزانة نفد بسبب نفقات الحروب فطلبت من شعبي ان يعطيني المال اللازم مقتديًا في ذلك باسلافي فعارض اعضاء البرلمان في ذلك وقالوا ان للشعب وحده الحق في تقرير دفع المال الذي اطلبه · فجمعت في فرساليا من كل مدينة رؤوسها في الشرف والمال والعقل · فلما اجتمعوا طلبوا مني مطاليب لا استطيع اجابتهم اليها لا من اجلي ولا من اجلك انت الذي ستكون خلفًا لي · فقام يومئذٍ اناس اشقياء اثاروا الشعب عليَّ وهيجوه كما رايت في الحوادث الاخيرة ومع ذلك يابني فيجب الصفح للشعب ونسيان كل ما يعمله

وكانت الملكة هادئة ساكتة ولكنها لما سمعت الملك يوصي ابنه بالصفح عن الشعب ونسيان اعماله ثار الغضب في نفسها لانها كانت تود ان تعلمه ان لا يصفح ولا ينسى بل ان ينتقم حينما يجلس على كرسي المملكة

كأن هذه المسكينة كانت ضامنة ان ابنها سيجلس على كرسي المملكة

وفي اليوم التالي بعث المجلس البلدي والحرس الوطني يسالون الملكة والملك ان يظهروا في حفلة عمومية ليعلم الشعب انهما مسروران باقامتهما في باريز وانهما يقيمان فيها طوعًا لا كرهًا

فاجابت الملكة انها لم تنسَ بعد حوادث فرساليا وان نسيانها يقتضي وقتًا طويلاً ولذلك فانها لا تستطيع ان تجيبهم الى دعوتهم

فعجب الناس من هذا الجواب لانهم كانوا قد نسوا كل شيء واستغربوا ان تكون الملكة حاقدة عليهم ولم تنسَ نسيانهم

الفصل السادس عشر

رسم شارل الاول

ولم يستقر الملك في التويلري حتى ذكر الدكتور جيلبار وصدق خدمته فامر الحراس بادخاله عليه عند وصوله الى القصر حين تجيء نوبته

فلما جاءت نوبة الدكتور جيلبار في الاقامة في قصر الملك طبيبًا له ادخلوه الى غرفة الملك في ذات يوم فرأى جيلبار الملك يخطر في الغرفة مفكرًا وهو يقف الحين بعد الحين

امام رسم كان معلقاً بالحائط · وكان الملك مشتغل الفكر بهذا الرسم الى حد انه لم يعلم بقدوم الدكتور مع دخوله الى الغرفة

ولكن جيلبار لم يلبث ان تعمد الحركة في الغرفة لينبه الملك اليه لانه لا يجوز له ان يخاطبه اولاً فالتفت الملك للحركة ولما ابصر الدكتور قال له · هذا انت ايها الدكتور تعالَ فقد جئت في حينك · ثم اخذه من يده واوقفه امام الرسم وسأله هل تعرف هذا الرسم يا دكتور فقال الدكتور نعم انه رسم شارل الاول ملك انكلترا الذي مات قتلاً ولكن من وضعه هنا (١)

فقال الملك هذا امرٌ حير ني فانني اعرف ان هذا الرسم موجود في فرساليا فمن جاء به الى هنا · لا اعلم

اما الرسم المذكور فهو نفسه الآن في متحف اللوفر في باريز وهو يمثل الملك شارل الاول في فراره الى ايكوسا واقفاً امام جواده وخادمه قابض على عنان الجواد وورائهما البحر · اما راسم هذا الرسم فهو المصور فنديك المشهور الذي صوره باتقان لا مزيد عليه حتى ان واحداً من رجال الانكليز اقترح على الفرنسويين ان يبيعوه اياه فيعطيهم ثمنه مقداراً من الذهب كافياً لتغطية الرسم كله مع كبره واتساعه

فقال الملك لجيلبار بعد سكوت هنيهة · انني اعهدك يا دكتور ممن يقولون الحقيقة ولا يخشون فيها لومة لائم فقل لي بماذا تفتكر وانت تنظر الى هذا الرسم

فانحنى جيلبار وقال اتطلب جلالتكم مني ان اقول كل الحقيقة · فقال الملك نعم اطلب ذلك · فقال الدكتور اذن اسأل جلالتكم انا ايضاً بماذا شعرتم حينما نظرتم الى هذا الرسم قبل دخولي فاني رايت جلالتكم حين دخولي كثيرة الاهتمام به · فقال الملك انني حين مشاهدة الرسم قلت في نفسي : ان الملك شارل الاول لم يُقتل الا لانه حارب شعبه · والملك جاك الثاني لم يفقد عرشه الا لانه اتعب شعبه

فقال جيلبار ان هذا الكلام كلام بليغ يامولاي · فقال الملك وبعدُ · قال جيلبار ولكنه يقتضي جواباً فماذا اجبتم عنه في نفسكم · اسددتم اذنكم عن هذا الصوت الذي

---

(١) شارل الاول — هو ملك من ملوك اسرة ستوارت ولد سنة ١٦٠٠ وجلس على تخت انكلترا في سنة ١٦٢٥ وقد ثار الشعب عليه لشدة ظلمه فلجأ الى ايكوسه فراراً منه فسلمه الايكوسيون الى حزب كرومويل فاعدموه في هويت هل في سنة ١٦٤٩

نطق الرسم به ام سمعتموه . فقال الملك كن مطمئناً يا جيلبار فانني لم اعزم على امر بعد

فقال جيلبار ولكن الشعب يامولاي يخاف من ان تعزموا على محاربته ومقاومته

فهز الملك راسه وقال . كلا كلا . فليكن الشعب مطمئناً لانني لا احاربه ابداً .
ومع ذلك فكيف احارب الشعب بغير مساعدة الاجانب واسمع حكمي في الاجانب لانك قد اصبحت منا فلا اخفي عنك شيئاً . ان ملك بروسيا اقترح عليّ ان يجدني بمائة الف جندي لكبح جماح الشعب واعادة النظام ولكنني احذر كل الحذر طمع هذه المملكة البروسية الصغيرة التي تتطاول لان تكون كبيرة ولذلك فانها تثير عوامل الشدة في كل الجهات لتصطاد في المياه العكرة . وقد اقترحت عليّ النمسا ان تنجدني بمائة الف جندي ايضاً ولكني لا احب ملكها ليوبولد لانه ذو وجهين ولسانين . اما شقيقي الكونت دارتوى فانه اقترح ان تساعدني اسبانيا وسردينيا وانا احذر الجيش الذي يقوده الكونت دارتوى ولا اثق به . بقيت كاترين العظيمة امبراطورة روسيا ولكن هذه اكتفت بالنصائح لانها الآن مشغولة بقتل بولونيا وافتراسها . واما نصيحتها فهي هذه « يجب ان لا يعبأ الملوك بصراخ الشعب وهياجه بل يجب ان يسيروا في طريقهم دون التفات اليه كما ان القمر يسير في طريقه دون ان يلتفت الى عواء الكلاب » ولكنه يظهر ان الكلاب في روسيا تكتفي بالعواء فقط اما كلابنا نحن فانها كلبة تعض . سلوا عن ذلك ديشوت وفاريكور

فقال جيلبار واذا كان الشعب يامولاي لا يخشى من ان تحاربوه فهو يخشى من ان تفروا من وجهه وتبرحوا فرنسا الى الحدود الاجنبية

فتردد الملك في الجواب . فقال جيلبار اذا كنت قد قلت ما لا يجب ان يقال فانني استغفر جلالتكم والتمس المعذرة منها فقد جرأني اذنكم لي في ان اقول الحقيقة بتمامها

فقال الملك نعم نعم اريد ان تقول الحقيقة بتمامها لان جميع الذين يحومون حولي و يقيمون معي يخفونها احياناً كثيرة عني حتى الملكة نفسها . لا اكتمك يا جيلبار انه خطر لنا فكر الهرب من فرنسا ولكننا عدنا فغيرنا عزمنا من وجه ما . فان الملكة في ليلة ٦ اكتوبر وهي الليلة التي جرى لنا فيها في فرساليا ما جرى الحت عليّ بان اقسم امامها انني اذا فررت لا افر وحدي بل آخذها والولدين معي فاقسمت لها بذلك . وهذا الاجمال اصبح مانعاً لفرارنا

فقال جيلبار انني اعجب يامولاي بدقة نظركم واتمنى ان يسمع الشعب كلامكم كما

سمعته الآن فان ذلك يقلل بغض كثيرين و يدفع اخطاراً جمة

فنظر الملك في وجه جيلبار وقال · وهل تُظنهم يبغضونني الى هذا الحد · اما الاخطار التي ذكرتهـا فانني اعتقد انها قد مرّت كما تمرّ سحابة الصيف واعتقادي هذا مبني على شهادات رجال بوليسي

فهزّ جيلبار راسه وسكت · فقال الملك ما لك لا تتكلم · فقال جيلبار · انا ليس لي بوليس ياذا الجلال لاعلم ما يعلمون ومع ذلك فانني اعلم ان الاخطار التي حدثت انما هي مقدمة صغيرة وان الاخطار الكبرى · الاخطار المائلة · الاخطار التي تتزعزع لها اسس الارض · قادمة على الابواب

فاصفر وجه الملك لهذا القول· اما جيلبار فقد اراد زيادة التاثير على الملك اقناعاً له فقال · وانني اضرب لحالتنا مثلاً ينطبق على الحقيقة كل الانطباق · نحن الآن كجماعة قائمين على بركان مضطرم · وقد زلزلت بنا الارض لاول مرة من حركة البركان فسلمنا من هذا الزلزال ولكن بقي امامنا انفجار البركان علينا وخروج حممه وناره ودخانه الينا · فيجب ان تستعد لمحاربة هذه المواد المهلكة

فقال الملك مفكرًا أقول انه يجب محاربتها ولكن لو قلت ان نفرّ منها لكنت اشد قرباً من الصواب

فقال جيلبار كيف الفرار يامولاي

فقال الملك لقد اسمعتك الآن رايي في مسالة المحاربة والفرار · فانني لا احارب شعبي قط على يد اجنبي · اما الفرار فانني لا اعتمد عليه الا اذا رايت حياة الملكة وولدي في خطر اما حياتي انا فلا اسأل عنها ولا اعبأ بها

فابرقت هنا عينا الدكتور جيلبار وقال · دعني يامولاي اجثو على قدميك واشكر لك عن جميع الوطنيين هذه الافكار السامية · ولكن ما الذي يحوجنا الى الاجانب لمحاربة اعدائنا في الداخل اذا كنا نستطيع ذلك بانفسنا · اجبني يامولاي انك تخشى من الثورة ورجالها اليس كذلك · فقال الملك نعم اخشى ذلك · فقال جيلبار ولكن لديّ طريقتين لانقاذ الملك وفرنسا معاً من هذا الامر · فقال الملك اذكر لي هاتين الطريقتين ايها الدكتور تستحق شكري وشكرها معاً · فقال جيلبار اما الطريقة الاولى فهي ان تضع نفسك يامولاي في مقدمة رجال الثورة وتمشي امامهم في طريق الاصلاح · فقال الملك ولكنهم يدفعونني امامهم الى حيث لا يمكنني الوصول ويجعلونني اصنع ما اكره صنعه

فقال جيلبار كلا كلا يامولاي لانك تستعين عليهم حينئذٍ بالطريقة الثانية التي هي وضع الشكيمة لهم · فقال الملك مستغرباً وما هذه الشكيمة

فقال جيلبار هي شكيمة الشهرة والعقل

فقال الملك وما هي

فقال جيلبار هي : ميرابو

فلما لفظ جيلبار هذه الكلمة نظر اليه الملك نظرة من لم يصدق بانه قال ما قال

الفصل السابع عشر

ميرابو

خطيب الثورة الفرنسوية واشدّ عواملها

فعلم جيلبار من نظرة الملك انه يجب ان يستجمع قواه كلها لمباحثة الملك بحثاً شديداً فقال وهو ينظر الى الملك · نعم ميرابو يا ذا الجلال · يجب استمالة ميرابو

فالتفت الملك باسماً الى رسم شارل الاول الذي كان هناك وقال — ما كنتَ تقول يا شارل الاول لو انهم اشاروا عليك والارض تزلزل تحت قدميك ان تعتمد على كرومويل

فاجاب جيلبار لا ريب ان شارل كان يرفض ذلك كل الرفض ويكون مصيباً في رفضه ولكن شتان بين كرومويل وميرابو

فقال الملك ان كنت تعتقد بذلك فانا لا اعتقد به اذ ليس للخيانة درجات لدي بل هي درجة واحدة فالخائن يكون خائناً في اعتقادي سواء كانت خيانته صغيرة او كبيرة

فاجاب جيلبار باحترام نعم ولكن كرومويل وميرابو يامولاي ليسا بخائنين فرفع الملك راسه وقال كيف ذلك · فقال جيلبار وانما احدهما رجل متمرد والثاني نبيل ساخط · فسال الملك ولماذا سخط ميرابو · فاجاب جيلبار · انه ساخط من كل شيء · من ابيه الذي سجنه في قصر ايف و فنسان · من المحاكم التي حكمت عليه مرة بالاعدام · من الملك الذي لا يعبأ بعقله ومواهبه

فقال الملك بحدة ولكن مواهب الانسان انما هي استقامته

فقال جيلبار ما احسن هذا الجواب · ولكن الخبرة من سوء الحظ لا تؤيده · افكان مستقيماً اغسطس يوم اقتسم العالم مع ليبيد وانطوان ثم فتك بالاثنين لينفرد بالسلطة على

العالم . اكان مستقيماً شارلمان الذي سجن اخاه كارلومان في احد الديور ثم رغبةً في التخلص من خصمه و يتيكند الذي كان رجلاً عظيماً مثله امر بقتل جميع اولاد السكسونيين الذين يتجاوز طولهم طول سيفه . اكان مستقيماً لويس الحادي عشر الذي تمرّد على ابيه لخلعه والذي وان كان قد خاب مسعاه جعل شارل السابع يموت من الجوع اذ كان يخشى ان ياكل طعاماً مسمماً . فكان كمن فرّ من الموت الى الموت . اكان مستقيماً ريشليو الذي كان يحدث في السر مؤامرات ليكشف امرها في العلانية برهاناً على مقدرته و رغبة في الزلفى . وهلم جرّا . فهل كل هؤلاء الرجال العظام كانوا مستقيمين يامولاي

فقال الملك متنهداً . ولكنك تعلم يامسيو جيلبار ان ميرابو من رجال الدوق دورليان فكيف اقدر على استمالته . فقال جيلبار ولكن الدوق دورليان قد سافر من باريز فاصبح ميرابو حرّاً . فقال الملك ولكن كيف تطلب مني ان اثق برجل يبيع نفسه . فقال جيلبار . لذلك طريقة وهي ان تشتريه فانك يامولاي قادر على دفع اعلى ثمن يطلبه فقال الملك ولكنه طماع لا يشبع من المال وربما طلب مليون فرنك . فقال جيلبار اذا كان يرضى بمليون فهو امر هين جداً وثق يامولاي انه يكون اشد نفعاً من اسرة بوليلياك التي تاخذ ملايين

فقال الملك بلهجة العتاب : جيلبار فقال جيلبار مراجعاً نفسه عفواً يامولاي اذا كنت قد اخطأت واذا كان الملك يامرني بالسكوت فانني اسكت . فقال الملك بل تكلم فقال جيلبار قد تكلمت يامولاي . فقال الملك فلنبحث في كلامك قال جيلبار وهذا احبّ الامور اليّ لاني اعرف من شؤون ميرابو بقدر ما اعرف من شؤوني . فسأله الملك هل هو صديقك . فقال ليس لي هذا الشرف يامولاي ومع ذلك فليس لميرابو الا صديق واحد وهو الكونت دي لا مارك من اصدقاء جلالة الملكة . فقال الملك اعرف ذلك وقد عيرناه بمصادقته غير مرة . فقال جيلبار بل يجب يامولاي ان تحكموا عليه بالاعدام اذا كان يترك هذه الصداقة الثمينة . فقال الملك ولكن ما الفائدة لنا من رجل وضيع النسب كالمسيو ريكيتي ميرابو

فقال جيلبار ان ميرابو ليس بوضيع النسب يامولاي لان اسرته تنتهي الى القرن الحادي عشر ومن قواعد الشرف لدى الملوك اسلاف جلالتكم ان يعتبروا الشريف شريفاً اذا كانت عائلته لا تنتهي الا الى القرن الرابع عشر فقط

اما فائدتنا منه فهي انه قادر على ايقاف تيار الشعب بسحر كلامه وقوة بيانه .

فقال الملك ولكنهم ابلغوني انه ليس بذي نفوذ الى هذا الحد فقال جيلبار ومن ابلغك ذلك يامولاي . فقال الملك رجالي الذين حولي فهز جيلبار راسه وقال ان لهؤلاء غرضاً يامولاي . فقال الملك مدهوشاً وما غرضهم من الوشاية بميرابو اليّ فقال جيلبار

غرضهم غرض اصحاب العقول الصغيرة الذين يكرهون اصحاب العقول الكبيرة فان رجلاً كميرابو اذا اصبح قريباً من عرش الملك لم يبقَ احدٌ من اولئك الرجال يجترئ على ان يقرب العرش . ذلك لان ميرابو من اعاظم البشر الذين اذا دخلوا الميا كلٌ طردوا الباعة منها . اذا اصبح ميرابو من رجالك يا مولاي فقل قد قُضي على رجالك . قُضي على المتملقين المتزلفين الذين يعيشون بالكذب من فتات خبزك . واشرق يومئذٍ للملكية فجر جديد . فماذا يهمك يا مولاي ما يقال عن ميرابو واسرافه وشهواته . خذه اليك . ادفع ما عليه من الديون التي قدرها نصف مليون فرنك . امنحه فوقها مليوناً بل اثنين بل ثلاثة بل عشرة اذ اراد . واجعله بعد ذلك مستشارك بل وزيرك واسمع ما يقوله لك صوته القوي ثم انقل قوله الى فرنسا واوربا والعالم اجمع . ولا تؤخر ذلك يامولاي . لا تؤجله الى وقت آخر فانه ربما ملّ ميرابو الانتظار وغضب من اهمالك اياه فينصرف عنك الى اعدائك

فقال الملك ولكن الم ينصرف عني اليهم الى الآن . فقال جيلبار كلا يامولاي فانه منصرف عنك في الظاهر ولكنه يعتقد في الباطن بانك ستطلبه وتقربه منك . واعتقاده حق لان ملوك العقول يجب ان يكونوا اعواناً لملوك الامم . اتعلم يامولاي ماذا سمعوه يقول في ذلك اليوم في اثناء كلامه على الحالة السياسية الحاضرة . ان هذا الرجل يقرأ في صفحات المستقبل بدقة عجيبة

فاجاب الملك كلا لم اسمع شيئاً . فقال جيلبار لقد سمعوا ميرابو يقول في جلسة ٢١ يونيو وهو يفرك يديه اسفاً « ان هذه الطريق تؤدي الى اعدام الملك » وقال بعد ذلك بثلاثة ايام « ان هؤلاء الاعضاء لا يعلمون انهم يحفرون لغماً هائلاً تحت اقدام الملكية فانهم اذا استمروا في هذه الطريق فان الملك والملكة يقتلان والشعب يصفق طرباً فوق جثتيهما »

فاصفر وجه الملك وارتعدت فرائصه لهذه النبوءة ثم انصرف وجهه بالرغم عنه الى رسم شارل الاول . وبعد ان تردد هنيهة التفت الى جيلبار وقال . ساحادث الملكة في هذا الشان يامسيو جيلبار لعلها ترضى باستدعاء ميرابو ومحادثته اما انا فانني لا احادثه ولا اضع

يدي في يده ولو فقدت عرشي وحياتي

وحينئذٍ دخل حارس وقال للملك ان الشخص الذي ينتظره جلالة الملك قد حضر ·
فعلم جيلبار انه يجب عليه الخروج من حضرته فانحنى باحترام وقال وهو يتأهب للخروج ·
أأعتبر نفسي مغلوباً يامولاي ام يبقى لي شيء من الامل · فقال الملك قد قلت لك
يامسيو جيلبار انني سافتكر بذلك واحادث الملكة بهذا الشان · فقال جيلبار الامر لجلالتكم
ولكني اسالكم ان لا تخرجوا رسم شارل الاول من هذه الغرفة فانه خطيب بليغ · ثم
خرج من لدن جلالته

وفي خروجه ابصر رجلاً داخلاً فتامله فاذا هو المركيز دي ففراس الذي تنبأ كاليوسترو
عنه انه سيشنق في ساحة الاعتصاب في باريز

الفصل الثامن عشر

مشروع الفرار

وكان المركيز دي ففراس من نبلاء ذلك الزمان · من اولئك النبلاء الذين يرعون
قواعد النسل والشرف مع الملوك ومع رؤسائهم و يدفعون عنهم دفاعهم عن انفسهم

فلما مثل المركيز في حضرة الملك لاطفه جلالته وحادثه فابلغه المركيز انه مرسل الى
جلالته من قبل سمو شقيقه الكونت دي بروفنس ليكون في خدمته · فشكره الملك ولما
طال الحديث بينهما قال له الملك ساذكرك ايها المركيز حين سنوح الفرصة · وكان هذا
القول بمثابة امر له بالخروج

فدهش المركيز لانه كان يتوقع ان يحادثه الملك في امر هام فقال للملك · اهذا
كل ما تطلبه مني جلالتكم

فاجاب الملك نعم هذا كل ما اطلبه

ولكن الملك لم ينه بهذه الكلمة حتى تحرك الستار الموضوع على باب داخلي حركة عنيفة
وقال منه قائل بصوت قوي · بل بقي لجلالتكم شيء آخر · فالتفت الملك فابصر الملكة

وحينئذٍ دار بين الملك والملكة حديث طويل بشان الهرب من باريز الى الحدود
الاجنبية فراراً من الموت او الاسر · فعارض جلالته في هذا المشروع فغضبت الملكة
وصاحت به · الا تذكر يامولاي ان الباريزيين قادرون في كل ساعة على الهجوم علينا

وقتلنا واسرنا

فنظر اليها الملك نظرة شديدة دلت على انها خرجت عن حدود الواجب في كلامها فراجعت الملكة نفسها امام المركيزدي ففراس وقالت ومع ذلك فلماذا الح عليك ياذا الجلال فانك الآمر المطاع فينا فلك الامر في هذا المشروع

فاجابها الملك اننا نفتكر في هذا الامر ايتها السيدة اما الآن فلم يأتِ وقته بعد

وبناء عليه خرج الماركيزدي ففراس من لدن الملك وكانت الملكة قد بعثت تطلبه ليضع خطة لفرار الملك الى مونمادي او الى بروكسل فاخفق سعيه كما تقدم

ولكن لم يخرج المركيز دي ففراس حتى عاد الغيظ والحنق الى الملكة فالتفتت الى لويس السادس عشر وقالت بنزق. آه ياسيدي انني لما علقت رسم شارل الاول في غرفتك حسبت ان منظره كافٍ لان يعظك ويجعلك تعتبر

ثم انها القت نظرها الى ما حولها فرات آثار زائر فقالت للملك . اظن ان جلالتكم قد قابلت في هذا الصباح رجلاً آخر غير المركيز ففراس

فاجاب الملك نعم قابلت الدكتور جيلبار فهزت الملكة راسها وقالت وما رايه في مشروع الهرب . فقال رايه كرايي . فقالت الملكة غضبى . ولكن اذا كان هذا الرجل يشير عليكم بالعدول عن مشروع الهرب فلا بد انه يكون قد نصح لكم بامر يقوم مقامه

فقال الملك نعم قد نصحني بان نشتري ميرابو . فسألته الملكة ولكن ما الثمن . فاجاب الثمن ٦ او ١٠ ملايين .. وبسمة منك

فظهرت حينئذٍ على وجه الملكة لوائح الافتكار والتامل الشديد . ثم قالت . ربما كانت هذه الطريقة طريقة نافعة . فقال وهل ترضين بها . فقالت لا اجيبك لا سلباً ولا ايجاباً حتى افتكر . فدعني افتكر فيها

ثم خرجت وهي تفتكر فيها

الفصل التاسع عشر

الملك والكونت دي شارني

مشروع الفرار

وما خرجت الملكة من لدن الملك حتى نادى الملك احد الحراس وامره باستدعاء

الكونت دي شارني . فذهب الحارس الى الكونت فلما رآه دي شارني ساله أأنت قادم من قبل الملكة فاجاب الحارس كلا ولكن من قبل الملك فقام الكونت مسرعاً لمقابلة مولاه

وكان الملك قد جلس الى مائدة يأكل فلما حضر الكونت امره ان يجلس حتى يفرغ من الطعام لانه معاهد نفسه على ان لا يهتم بشان من الشؤون المهمة وهو يأكل فجلس الكونت على مقعد بازاء الملك فصار الملك يحادثه بشؤون عائلية

فساله عن الكونتس اندري فاجابه انها تعتذر الى جلالتكم عن عدم مقدرتها على الرجوع الى القصر . فحملق لويس السادس عشر في وجه الكونت وقال له هل آلت على ان تعيش خارج القصر فقال الكونت نعم . قال كيف ذلك وهل تفارقنا انت واياها

فاجاب الكونت كلا يامولاي . فانها هي تقيم في قصرها في شارع كوك هيرون وانا اقيم ههنا في خدمة جلالتكم

فزادت حيرة الملك ودهشته فقال له وكيف تعيشان منفصلين هذا الانفصال

فشعر الكونت دي شارني بدمعة تجول في عينيه عند سؤال الملك هذا السؤال ثم انه تنهد وقال هذه ارادة الكونتس يامولاي

ثم فرغ لويس السادس عشر من طعامه فنهض عن المائدة نهوض من اعطى نفسه المادية كل حاجاتها ثم قال لشارني اتبعني الى غرفة اخرى لاحادثك بالشؤون الهامة التي استدعيتك من اجلها

ثم ذهبا الى غرفة شغل الملك ولما دخلا اليها جلس الملك والكونت ثم ان الملك مد يده الى درج سري في مائدة الكتابة واخرج منه كتابا صغيراً مطوياً فوضعه على المائدة ووضع يده عليه ثم التفت الى الكونت وهو يتامل تامل من عزم على اطلاع جليسه على امر خطير جداً وقال له . اني اسالك ايها الكونت سؤالاً وهو . ماذا تحكم على حالتي الآن

فدهش شارني لهذا السؤال الذي لم يكن يتوقع ان يلقيه جلالته عليه وبقي مبهوتاً ساكتاً فاعاد عليه السؤال قائلاً ماذا تحكم على حالتي ايها الكونت وما كنت تصنع لو كنت مكاني . اجبني بلا تردد وصرح لي بالحقيقة بتمامها دون ان تخفي شيئاً عني

فاجاب الكونت حينئذٍ باحترام انني لا اجسر على الجواب يامولاي لانني خادم من خدمة جلالتكم اجهل كل المسائل التي يتوقف عليها الحكم

فقال الملك . اسمع يا كونت . انني رايت في ليلتي ٥ و ٦ اكتوبر انك تركت الملكة في اثناء حادثة فرساليا وجئت الي تخفر بابي وجعلت اخاك امام باب الملكة

فقال الكونت نعم يامولاي لانني راس عائلتي وراس العائلة يجب عليه ان يحمي راس المملكة

فقال الملك فمنذ تلك الليلة عرفت مبلغ اخلاصك وغيرتك ولذلك اردت الآن ان اخصك بمهمة سرية في غاية الاهمية . ومن اجل هذا سألتك هذا السؤال وهو : ما حكمك على الحالة الحاضرة يا كونت هل انا الآن مولى باريز او اسيرها . ولو كنت مكاني فماذا كنت تصنع

فقال الكونت مع احترامي لجلالتكم يامولاي اقول اني لو كنت مكانكم وكنت قد سمعت ما سمعتموه من هتاف الشعب للافاييت وميرابو حين قدومكم من فرساليا الى باريز لمددت يميني الى لافاييت و يساري الى ميرابو استميلهما الي

فبهت الملك وعجب من انطباق هذا الجواب على ما اشار عليه به جيلبار فيما تقدم ثم قال للكونت كيف تقول يا كونت هذا القول مع كراهتك للاثنين

فاجاب شارني ان الكراهة شيء يامولاي والسياسة شيء آخر . ومن مصلحة جلالتكم الآن ان تفعلوا ذلك حفظاً لعرش المملكة

فقال الملك وهل ان الشعب الآن غاضب مني ومن عرشي . فقال الكونت كلا يامولاي ان الشعب الحقيقي راض عنكم محب لكم . اما رأيتموه امس واليوم يهتف لكم وللملكة اشد هتاف . اما الجماهير التي دخلت الى قصر فرساليا فما هي بالشعب الحقيقي وانما هي عصابات يثيرها دعاة الفتنة والاضطراب . فاذا رغبتم في تسكينها وكبح جماحها فاستسلموا الى الشعب الحقيقي الذي يحبكم واتخذوا لافاييت وميرابو عوناً لكم

فقال الملك هذا ما اشار علي به الدكتور جيلبار في هذا الصباح ايضاً . فقال شارني يسرني جداً ان تكون نصيحتي لمولاي منطبقة على نصيحة رجل عظيم الشأن واسع العلم كالدكتور جيلبار

فقال لويس السادس عشر فلنفترض الآن امراً آخر وهو . اننا اردنا ان نؤلف وزارة ندخل فيها الافاييت وميرابو فاخفق سعينا فماذا يبقى علي

فبهت الكونت قليلاً ثم قال يبقى على جلالتكم بعد ان تكونوا قد صنعتم كل ما يجب صنعه ان تسعوا في انقاذ جلالة الملكة وولديكم

فقال لويس السادس عشر تعني ان نفرّ من باريز

فقال الكونت اعني ان تلجئوا الى قلعة حصينة على الحدود مثل متزاو نتسي او ستراسبورج لتكونوا في مامن من ثورة الثائرين

فاشرق وجه الملك عند هذا الكلام · ثم سأل شارني · وهب انني رضيت بذلك فاي قائد من قوادي تراه احق بان يدبر هذا الامر ويتولى حراستي · فأجاب شارني لا استطيع الجواب يامولاي لان جميع قوادنا ابطال امناء · قال ولكن لاتخف ان يؤثر قولك على عزمي · انظر هذا الكتاب فانني قد كتبته باسم القائد الذي ساعهد ذلك اليه · ومن ذلك تعلم انني قد عينته فلماذا تخاف من ذكر اسم القائد الذي تراه جديرًا بهذه المهمة

فقال شارني اني ارى الجنرال دي بوليه حاكم متس رجلاً امينًا وقائدًا عظيمًا يامولاي · فضحك لويس السادس عشر ثم تناول الكتاب الذي كان تحت يده وقال لشارني لقد حذرت ايها الكونت الشخص الذي وضعت ثقتي فيه · ثم اراه عنوان الكتاب

فابتلت عينا شارني بالدمع اعتزازًا وابتهاجًا

ثم قال لويس السادس عشر لشارني · اسمع يا كونت انني لا اخفي عنك شيئًا لانني عرفت مبلغ اخلاصك · لقد عرضوا عليَّ جملة مشروعات للفرار من باريز · منها مشروع الفرار ليلة ٦ اكتوبر · فقال شارني قد علمت بهذا المشروع فقال لويس السادس عشر ومنها مشروع المسيو برتوبل · فسكت دي شارني · فقال لويس السادس عشر ما لك لا تتكلم · فقال شارني ان المسيو برتوبل رجل النمسا وساعدها فاخشى يامولاي ان اسوءكم بالكلام عنه

فانحنى لويس السادس عشر صوب شارني وقال · لا تخف شيئًا يا كونت فانني لا احب النمسا اكثر مما تحبها انت

فارتعدت فرائص دي شارني لهذا الكلام · واما لويس السادس عشر فقال · كونت كونت انني لا احب النمسا اكثر مما تحبها انت بل انني اقول بصراحة انني اكره ماري تريزه التي دست السم لابي والتي ارادت التسلط على فرنسا بواسطة الارشيدوقة ماري انطوانت

ولا يخفى ان الارشيدوقة ماري انطوانت هي الملكة

فازداد شارني دهشة وقال للملك انك يامولاي تقول لي الآن اموراً خطيرة واخشى ان تندم جلالتك على انك قلتها. فاجاب الملك كلا لا اندم على ذلك وبرهاني عليه اني ازيدك منه . انت تعلم ما لمدموازل برتين خياطة الملكة والمسيو لبونار رئيس مزينيها من التاثير عليها . وهذان الشخصان يبذلان قصارى الجهد بناء على تحريض رجال النمسا لجعل الملكة تسعى في عقد محالفة بين النمسا وفرنسا . ولكن النمسا كانت مشؤومة لفرنسا دائماً . وسياتي يوم تصبح فيه مشؤومة لنفسها ايضاً . فان هذه المملكة التي كانت كاثوليكية محضة قد اخذت تتمسك باهداب الفلسفة في حكم جوزيف الثاني . وقد نبذت التروي والحكمة فصارت تتخذ المجر سيفاً لها وهذا السيف سينقلب عليها (١) وقد صرفت وجهها الى محاربة الاتراك حلفائنا تاركة اوربا وشانها وجاعلة الغنيمة من تلك الحروب لروسيا وحدها . وفضلاً عن هذا وهذا فانها تركت الرهبان البلجيكيين يغصبونها احسن قسم من بلادها وهو بلجيكا . نعم نعم يامسيو دي شارني اني اكره النمسا ولا اطيقها

ثم سكت الملك قليلاً وبعد هنيهة اردف بقوله . لقد علمت الآن انني اكره الاستسلام الى النمسا وبين او الفرار على يدهم فاسمع الآن امراً آخر . اتعرف المركيز دي ففراس ايها الكونت . فاجاب شارني نعم يامولاي. فقال الملك ان المركيز دي ففراس جاءني من قبل اخي « مونسيو » (٢) يقترح علي الفرار . فما رأيك في هذا الرجل

فاجاب شارني رأيي ان الرجل شريف قد يبذل نفسه في سبيل الملك ولكني لا اظنه قادراً على ان يكون رئيساً لمشروع خطير كهذا المشروع

فقال الملك نعم وقد عرفت ذلك انا ايضاً لاني عرفت ان رئيس هذا المشروع هو اخي مونسيو لا ففراس وما ففراس الا اليد المنفذة

ففتح شارني عينيه فقال الملك وهل تستغرب ان يكون اخي ساعياً في اخراجي من باريز . لا تستغرب ذلك فانه يتمنى سفري من العاصمة حتى اذا مل الشعب طول غياب

---

(١) لقد صحت نبوءة دوماس في هذا الشان كما يعرفه القراء فان النمسا والمجر منقسمتان اليوم اشد انقسام والسياسيون يخشون من انفصالها بعد وفاة الامبراطور فرنسوى جوزيف الحالي

(٢) مونسيو او مسيو لقب كان يلقب به منذ بداية القرن السادس عشر اكبر اخوة الملك

الملك واحتاجوا الى من يقوم مقامه كان هو قريباً

فقال شارني مولاي انك تقول لي اموراً هائلة · فقال الملك كلا انني لا اقول لك الا ما كتبه لي اخوك من تورين فانه كتب اليَّ يقول ان الامراء اجتمعوا في تورين اخيرًا وبحثوا في خلعي وتنصيب من يقوم مقامي · وفي هذه الجلسة نفسها اقترح ابن عمي المسيو دي كونده ان يزحف الجيش النمساوي على مدينة ليون مهما اصاب الملك · ومن اجل ذلك كله لا ارضى النجاة على يد النمسويين ولا على يد فرنسا بل اختار ما ذكرته لك من النجاة على يد المسيو بوليه · فخذ الآن هذا الكتاب اليه وسافر على عجل واياك ان تطلع احدًا على سبب سفرك حتى الملكة نفسها

ثم ان الملك اطلع شارني على الطريقة التي يخابر بها المسيو بوليه فخرج شارني من لديه مسرورًا بان الملك اعتمد عليه · ولو ان الملك انعم عليه اسمى انعام لما استطاع استمالته اليه بقدر ما استماله بوضع ثقته فيه

الفصل العشرون

غضب الملكة وحبها

وخرج شارني من لدن الملك مخفورًا معجباً بنفسه لان الملك كان كمن وضع يده على كتفه واستند اليه · واول ما صنعه انه ذهب الى غرفته ليكتب الى الملكة كتاباً يبلغها فيه انه مسافر من باريز · وذلك لانه كره مقابلتها بعد تلك المقابلة التي اظهر له الملك فيها كل ثقة ووداد

ولكنه لما وصل الى غرفته وجد ويبر خادم الملكة ينتظره ليذهب به الى الملكة على عجل بناء على امر منها فذهب الكونت معه مضطرًا لا مختارًا

وكانت الملكة قد عرفت انها اخطأت الى شارني بكثرة ما عذبته بسوء ظنها به وسوء معاملتها اياه مع حبها له فارادت في هذه المرة ان تغسل ما مضى ولذلك استعدت لتقابله احسن مقابلة · واما شارني فقد كان قادماً لهذه المقابلة وهو منقبض الصدر لرغبته عنها كما تقدم ولذلك لم يدنُ من الملكة حين دخوله عليها بل بقي واقفاً في عتبة الباب وقفة الاحترام والاحتشام

فالتفتت اليه الملكة وقالت بلطف · تقدم تقدم يامسيو شارني فنحن وحدنا

فدنا منها شارني باحترام ثم قال بلهجة رسمية هاءنذا يامولاتي طوع امرك

فالتفتت اليه الملكة مرة ثانية وقالت له . اما سمعت ايها الكونت انني اقول لك اننا هنا وحدنا

فاجاب الكونت نعم سمعت ذلك يامولاتي ولكني اعلم أن الانسان يخاطب ملكته بلهجة واحدة سواء كانت منفردة وحدها او على مرأى ومسمع من الناس

فاحست الملكة بما في هذا الكلام من المعنى المقصود فقالت ولكني لما استدعيتك ياكونت كنت أؤمل ان تخاطبني مخاطبة الصديق لصديقته لا مخاطبة رجل لملكته

فظهر هنا على شفتي الكونت شارني ابتسام لطيف

وكأن الملكة فهمت معنى هذا الابتسام فاردفت بقولها . انك تبتسم يا كونت ولعلي اعرف سبب ابتسامك واقرأ الآن ما تقوله في نفسك . انك تقول انني ظلمتك فيما مضى وعذبتك ولكن فلننس الماضي ياكونت واعلم انني كملكة لا استغني عن نصائحك وكامراة لا استغني عن صداقتك

ثم مدت اليه يدها الجميلة فتناولها شارني وقبلها . ولما اراد تركها امسكت الملكة يده ثم اردفت بقولها

نعم قد ظلمتك يا كونت فانني رايت اخاك الذي تحبه يموت موت الابطال في سيفلي ولم اقل لك كلمة تعزية فيه . ولكن لا تلم المراة فانها ضعيفة وقد اوقف الدمع في عينيَّ في تلك الايام ما كنا فيه من الخوف والغضب والهول . اما اليوم وقد اصبحت وحدي في هذا القصر فقد وفيتك دينك بالبكاء . ذلك اني بكيت في هذه الايام العشرة التي مرت عليَّ دون ان اراك وان كنت لا تصدقني فانظر الآن الى عينيَّ

قالت ذلك ثم رفعت راسها لتريه عينيها . فنظر شارني فيهما دمعتين منحدرتين على خدها انحدار لؤلؤتين على قطعة من الرخام . وقد كان انحدارهما في مسيل مفتوح انشأته كثرة الدموع التي انحدرت منهما

فلما نظر شارني دموعها كاد ينطرح على قدميها ولكنه ذكر في الحال وداد الملك وثقته فتمالك نفسه وقال مضطرباً . اشكرك ياسيدتي شكرًا جزيلاً على ذكرك اباي وحزنك على اخي . ويحزنني جدًا ان ليس لي وقت كافٍ لشكر جلالتك

فرفعت الملكة راسها وقالت متعجبة . كيف تقول انه ليس لك وقت كافٍ . فقال شارني ذلك لاني مسافر ياسيدتي . فقالت الملكة باستغراب زائد . انت مسافر؟ ولماذا ؟ فقال اني مسافر ياسيدتي في مهمة لمولاي الملك . فسالته وكم يومًا تغيب عن باريز فاجاب

لا اعلم ياسيدتي . قالت والى اين تسافر

فتردد شارني في الجواب ثم قال هذا سر مولاي الملك فاذا سالته ياسيدتي اطلعك عليه

فبهتت الملكة ثم قالت باستياء ولكنه اذا كان سر الملك فهو سر الملكة ايضاً افلا تطلعني عليه . فقال شارني اذا سمعته يامولاتي من فم الملك نفسه كان ذلك اكثر دلالة على امانتي لجلالتك ولجلالة الملك

ثم ان شارني انحنى انحناء من يستاذن الملكة بالذهاب . فبلغ الحنق من الملكة عند هذه الحركة مبلغه فاومأت اليه بيدها بنزق وقالت . فاذهب اذاً

الا انها كادت تختنق بالدمع عند ذكرها ان شارني مسافر الى مكان لا تعرفه ولا تعرف الاخطار التي تتهدده فيه

فخطا شارني نحو الباب بعد التسليم باحترام ثم فتحه ورام الخروج منه

واذا بصوت الملكة يناديه بحدة : شارني شارني

فالتفت الكونت الى الملكة . فقالت له ماري انطوانت تقدم تقدم . فتقدم منها . فقالت له تقدم ايضاً . فدنا حتى اصبح بينها وبينه مسافة ذراع فقط . فنظرت الملكة حينئذ في وجهه والدموع تجول في عينيها ثم سالته بلهجة ممزوجة باللين واللطف والكبرياء — الم تعد تحبني ياشارني

فلما سمع شارني هذا الكلام طار صوابه وكاد يُغمى عليه ويسقط جاثياً تحت اقدام الملكة . وكانت هذه هي المرة الاولى التي لانت فيها الملكة وخفضت راس كبريائها امام الرجل الذي تحبه

ولكن الكونت لم يلبث ان ثاب اليه رشده فانحنى امام الملكة باحترام لا مزيد عليه وقال : اكون دنيئاً ياسيدتي اذا كنت اظهر لك الآن شيئاً غير اخلاصي واحترامي بعدما اظهره لي الملك منذ ساعة من الثقة والوداد

فصرفت حينئذ الملكة وجهها عنه بكبرياء وقالت : انت حر ايها الكونت فاذهب واصنع ما تريد

فخرج شارني باضطراب شديد وبقيت الملكة في القاعة وهي في اشد حالات الهياج وبعد خروجه بمدة قصيرة سمعت الملكة صوت مركبة فاندفعت الى النافذة فعرفت انها مركبة الكونت تسير نحو شارع كاروسل . فنادت خادمها ويبر في الحال وسالته اسي

طريق توصل الى شارع كوك هيرون لمن يريد الذهاب اليه · فاجاب الخادم طريق كاروسل · فعضت الملكة شفتها وقالت في نفسها : انه سائر ليودع اندري زوجته · ثم جالت في الغرفة ذهاباً واياباً وقالت بحنق : يجب ان اعرف لهذه الامور نهاية · ثم نادت خادمها ثانية وقالت له · اذهب الآن الى منزل الكونتس شارني في شارع كوك هيرون وابلغها ان تاتي غداً لمقابلتي · فاجاب الخادم قد عينت جلالتك يوم غد موعداً لمقابلة الدكتور جيلبار · فاجابت الملكة دع مقابلة الدكتور جيلبار الى بعد غد· فانصرف و يبر الى منزل الكونتس دي شارني

ولما وصل و يبر الى منزل اندري كانت اندري تقرأ كتاباً وردها من شارني فلما دخل عليها و يبر خادم الملكة ضمت الكتاب الى صدرها كأن و يبر جاء لاخذه منها ولما ابلغها و يبر امر الملكة اجابت انها ستقابل جلالتها غداً · فعاد ويبر من حيث اتى اما اندري فانها فتحت الكتاب بعد ذهاب و يبر واتمت قراءته ثم رفعته الى شفتيها وقبلته وقالت : فليحرسك الله ياحبيبي · نعم انني اجهل المكان الذي انت مسافر اليه ولكن الله يعرفه وصلاتي تعرف ابن الله

وفي المساء جاء مونسيو شقيق الملك وقابل الملكة ليباحثها في مسالة فرار الملك على يد المركيز دي ففراس فصرفت الملكة خاطرها الى هذا الامر · اما الملك فان فكره كان مصروفاً الى الجنرال بوليه الذي بعث اليه الكونت دي شارني · وهكذا مضت تلك الليلة: الملكة تفكر في مسالة ففراس والملك يفكر في مسالة بوليه· الا ان الملكة كانت تفكر ايضاً في امر غير مسالة ففراس وهو حبها للكونت دي شارني

وفي مساء هذا اليوم ابلغوا الملك ان المجمع الوطني قرر تغيير لقب الملك · فانه كان يلقب« ملك فرنسا ونافاريا » فجعل المجمع لقبه هكذا « ملك الفرنسويين »

الفصل الواحد والعشرون

﴿ امراة بلا زوج — وعشيقة بلا عشيق ﴾

وفي صباح اليوم التالي بكرت اندري الى قصر الملكة

وكانت الملكة مستعدة لمقابلتها ومع ذلك فانها لم تتمالك ان ترتعد فرائصها حين نداء و يبر معلناً : الكونتس دي شارني ·

اما اندري فانها دخلت على الملكة ثابتة الجاش هادئة ناصعة البياض كالماس ولكنها مثله قاطعة قوية

فبادرتها الملكة بقولها : اهلاً وسهلاً بالكونتس اندري . وقد قالت الملكة ذلك بلهجة في غاية اللطف والمجاملة

فاجابتها اندري غير متقاقلة لهذا اللطف الذي كانت لا تتوقعه . لو كانت جلالتك تخاطبني دائمًا بهذا اللطف لما بعثت تطلبني من خارج قصرها . وقد عنت اندري بذلك ان الملكة لو كانت لطيفة معها دائمًا لما تركت هي قصرها . فكأن اندري دخلت بكلمة واحدة في اساس الموضوع الذي ارادت الملكة مباحثتها فيه . فاجابت الملكة بشيء من الاسف

ان في كلامك يا اندري شيئًا من العتب والملام وربما كنت استحق ذلك في الزمن الماضي لان حوادثه الهائلة قد شغلتني عن اقرب الناس اليَّ . وهذا القول كافٍ ليدلك على ان ما حسبته اهمالاً وانكارًا للجميل انما هو في الحقيقة ضعف وعجز

فقالت اندري ان هذا القول يصح ياسيدتي اذا كنت قد سالتك شيئًا يومًا من الايام ولم تجيبيني اليه

فصاحت الملكة : وهذا هو الامر الذي يدهشني ايتها العزيزة ويجوز لي ان اشكو منه . فانني لا اراك تسالين شيئًا كانه لا يهمك امر من امور هذه الحياة بل كانك بشر فوق الطبيعة نفسها او مخلوق غريب حملته الزوابع من احد عوالم الفضاء وقذفته بيننا فسقط عندنا كما تسقط تلك الاجسام التي تاتينا من مكان مجهول والتي تطهرها النار في سقوطها . وحقًا يا اندري ان كل انسان يشعر بضعف لدى وقوفه امامك انت التي لم يعرفك الضعف قط . يشعر بضعف ولو كان ذا راس متوَّج . ولكنه بعد شعوره بالضعف يشعر بالاطمئنان ايضًا لان من كان مثلك بالغًا اقصى درجات الكمال البشري فانه يكون بالغًا درجات الحلم والصفح لانهما من جملة صفات الكمال . ولذلك فهو استنادًا الى هذا الحلم والصفح يبعث في طلبك ليسالك تعزية لنفسه

وكانت الملكة تتكلم واندري جامدة كانها صنم . فلما اتت الملكة على كلامها قالت اندري بثبات جاشها المعروف : انني اخشى ياسيدتي ان لا تجد جلالتك في الامر الذي بعثت تطلبني من اجله . فان التي لا تطلب تعزية من احد لا يمكنها ان تكون قادرة على تعزية احد وخصوصًا اذا كانت مثلي لا تطلب تعزية حتى من الله نفسه لانها تعلم ان في بعض

الآلام ما لا تظن احداً قادراً على شفائه

فنظرت الملكة الى اندري واطالت النظر في وجهها ثم قالت بهيئة جدية : ما هذه الآلام التي لا يشفيها شيء . هل بقيت بك آلام لم تطلعيني عليها

فسكتت اندريه

واما الملكة فاردفت قائلة بشيء من النزق . فلنتكلم الآن بحرية لانني بعثت اطلبك لهذا الغرض . قولي لي هل تحبين المسيو دي شارني

فاصفرت اندري حتى حاكت صفرتها صفرة الاموات ولكنها بقيت مثلهم جامدة هامدة

فاعادت الملكة سؤالها بنزق اشد : قولي مالك لا تتكلمين . هل تحبين المسيو دي شارني

فاجابت اندري بهذه الكلمة المفردة : نعم

كلمة هائلة ما سمعتها الملكة حتى صرخت صرخة اللبوة الغضبى

ثم كظمت غضبها وقالت لها : اما انا فما كنت اتوقع ذلك . ولكن متى ابتدأ حبك فاجابت اندري : منذ رايته . فقالت الملكة وقد كتمت امرك كل هذا الوقت فقالت اندري انتِ ادرى بذلك ياسيدتي . فقالت الملكة ولماذا هذا الكتمان . فقالت اندري لانني عرفت انك تحبينه . فقالت الملكة وهل تعنين بذلك انك كنتِ تحبينه اكثر مما احبه لانكِ رايت ما لم ارَ فاجابت اندري بشيء من الالم . كلا ولكنك انتِ لم تري ما رايت لانه كان يحبك . فقالت الملكة تقولين «كان» فهل تعنين بذلك انه لم يعد يحبني

فسكتت اندريه

فاستشاطت الملكة غيظاً من هذا السكوت وصاحت بها . مالك تسكتين . اقتليني بقولك انه لم يعد يحبني فذلك خير من هذا السكوت . قولي الم يعد يحبني

فقالت اندري ان حب المسيو دي شارني وعدم حبه امران تختصان به وهما من امراره

فازدادت الملكة حنقاً فقالت ولكنهما من امرارك ايضاً لانه لابد ان يكون قد اطلعك على امراره . فقالت اندري ان المسيو دي شارني لم يطلعني قط على حبه او عدم حبه لك . فسألتها الملكة ولم يطلعك على ذلك ايضاً في هذا الصباح . فاجابت اندري انني لم

اشاهد المسيو دي شارني في هذا الصباح

فنظرت الملكة الى الكونتس نظرة دلت على ارتيابها في هذا الكلام ثم قالت هل تريدين بذلك انك تجهلين سفر الكونت · فقالت اندري كلا لا اجهل انه سافر · فصاحت الملكة فمن اين عرفت انه سافر اذا كنت لم تريه · فاجابت اندري عرفت ذلك من كتاب كتبه اليّ

وكما ان ريشار الثالث صاح في ساعة من ساعات يأسه « اعطي تاجي لمن يعطيني فرساً » كذلك صاحت ماري انطوانت في نفسها « اعطي تاجي لمن يعطيني هذا الكتاب »· وقد فهمت اندري ما كان يختلج في صدر الملكة فرامت ان تترك ضرتها هنيهة في ذلك العذاب·

وبعد هنيهة التفتت الملكة وقالت لاندري اظنك تركتِ هذا الكتاب في منزلك · فمدت اندري يدها الى جيبها وقالت بل هو معي ياسيدتي· ثم اخرجت يدها وفيها كتاب تفوح منه رائحة طيبة · فمدت الملكة يدها وتناولته وهي ترتعش ثم اخذت تقرأه

وكان هذا الكتاب يحتوي على خبر سفر الكونت دي شارني وقد ذكر فيه الكونت انه رفض المهمة الاولى لرغبته في البقاء في باريز قريباً من الكونتس ظناً منه انها توده وتعطف عليه اما وقد تحقق انها لا تعبأ به فقد طلب السفر ترويحاً لنفسه من حزنها

فعلمت الملكة من هذا الكتاب ان الكونت لا يزال يجهل حب اندري له ولكنها علمت منه انه قد بدأ يميل اليها

اما اندري فانها قالت للملكة بعد ان اتمت قراءة الكتاب : هل تحققتِ انني ما خنتكِ قط · فاجابت الملكة وقد سكن جاشها بعض السكون · عفواً يا اندري ولا تلوميني فانني قد تعذبت كثيراً ···

فصاحت اندري حينئذ وقد ظهر عليها الغضب لاول مرة · تقولين انك تعذبتِ ايتها السيدة ··· فاذا كنت تقولين ذلك فماذا اقول انا ··· انا لا اقول انني قد تعذبتُ لانني لا اريد استعمال كلمة قالتها امرأة اخرى لتعبر بها عن شيء كالذي في خاطري · وانما اريد كلمة جديدة · كلمة هائلة تدلُّ على حقيقة العذابات والاهوال التي قاسيتها · تقولين انك تعذبت فهل احببتِ رجلاً كان لا يعبأ بحبك · هل رايت اخاك يبارز هذا الرجل ويجرحه جرحاً ظُنَّ مميتاً · هل سمعت هذا الرجل الذي تحبينه وهو في بحران الحمى وذهولها لا ينطق الا باسم ضرتك التي لا يحب غيرها · هل يتسترِ في صباك من ذلك الحب

الشديد الذي يكوي و يشوي فدخلت دبرًا لتبردي في الوحدة والانفراد حرارته ٠ ثم وانتِ في هذه الوحدة هل رايت ضرتك قد جاءت اليك تطلب منك باسم وداد قديم ان تكوني زوجة لذلك الرجل ٠ زوجة بالاسم فقط وقطعاً لالسنة الناس لانها تحبه كما انه يحبها ٠ هل رايت نفسك انك اصبحت زوجة لذلك الرجل وهو لا يعبأ بك ولا يلتفت اليك وانما كل التفاته الى ضرتك التي كانت تعيش قريبة منك٠ هل حدث لك شيء من كل ذلك ايتها السيدة ليجوز لك القول بانك تعذبتِ ٠ اما انا فقد حدث لي كل ذلك كما تعلمين والسنوات الثلاث الماضية كانت سنوات عذاب طويل عندي

وكانت الملكة تسمع هذا الكلام وهي خائرة القوى ولما اتت اندري على كلامها وسكتت لتتنفس الصعداء مدت الملكة يدها لتاخذ يد اندري فجذبت اندري يدها واردفت بقولها : ومع ذلك فانني لم اعدك بشيء ايتها السيدة وفعلت ما فعلت ٠ اما انت فانك وعدتني امرين

وكانت اندري قد دخلت بهذا الكلام في دور الشكوى من الملكة ٠ وكان كلامها بلهجة شديدة تدل على النار التي كانت تتقد في احشائها ٠ فنظرت اليها الملكة نظرة عتاب قائلة — اندري٠ فاردفت اندري بقولها من غير ان تبالي بعتاب الملكة ٠ —انك وعدتني امرين ايتها السيدة دون ان اطلب منك هذا الوعد ٠ الاول انك ما عدتِ ترين دي شارني

فعاتبتها الملكة مرة ثانية بقولها اندري ٠ ولكن ذلك ما كان ليمنع اندري من اتمام الحديث الذي وطنت نفسها على الدخول فيه فقالت بجاش ثابت ٠ واما الوعد الثاني فهو وعد بالكتابة فانك وعدتني بان تعامليني معاملة اخت لك

فقالت الملكة مرة ثالثة بصورة عتاب أيضاً اندري اندري ٠ فاجابت اندري دون ان تصغي الى شيء

وهل تريدين ان اذكر لك العبارات التي وعدتني بها هذا الوعد ٠ انك بعد عقد الزواج الذي كنت تطلبينه عرفتِ قدر العمل الذي عملته اخلاصاً لك فكتبت الي ورقة هذا نصها

« لقد انقذتني يا اندري واعدتِ الي شرفي وحياتي فباسم هذا الشرف وهذه الحياة اقسم لك انك اذا دعوتني اختاً لك فانني امرؤ بذلك ولا اخجل منه ٠ وقد كتبت لك هذا الكتاب ووضعته في يدك كدوطة لك ٠ واني اعرف انك كريمة بين الكرائم ولذلك

لا اشك في كونك تقدر ين قدر هذه الهدية »

فما اتت اندري على آخر هذه الكلمات حتى تنهدت الملكة تنهدًا دل على انسحاق نفسها تجاه هذه المراة القوية . اما اندري فانها اردفت بقولها . ولا اجهل انك كنت تحسبين انني نسيت هذه الورقة لانني مزقتها ولكن فاعلمي انني لم انسَ منها حرفًا واحدًا بل هي منقوشة على صفحات صدري

فصاحت الملكة عفوًا يا اندري فانني اذا كنت اسأتُ معاملتك فذلك لانني كنت ظننت انه يحبك

فصاحت اندري . وهل تحسبين ايتها السيدة ان من نواميس القلب انه اذا اصبح القلب اقل حبًا لشخص فذلك دليل على انه صار يحب شخصًا آخر

فلم تتمالك الملكة ان صاحت هنا ملءُ فمها . وانت ايضًا لمحتِ انه صار اقل حبًا لي مما كان قبلاً

فسكتت اندري ولكنها لما رات الملكة بذلك العذاب لم تتمالك ان ابتسمت ابتسامًا خفيفًا لرؤيتها ان التي عذبتها وقتًا طويلاً قد صارت تتعذب ايضًا . اما الملكة فصاحت مرة ثانية

ما العمل يارباه . كيف السبيل لحفظ ذلك الحب فانه اذا ذهب ذهبت حياتي معه اتعلمين لذلك طريقة يا اندري . يا اختي . ياعزيزتي

ثم ان ماري انطوانت مدت ذراعيها الى اندري لتضمها اليها فخطت اندري خطوة الى الوراء واجابت . كيف اعرف ذلك مع ان الكونت لم يحبني قط . فاجابت الملكة ولكن سياتي يوم يحبك الكونت فيه و يسألك العفو عما مضى . فانقبضت اندري وقالت ان ذلك اليوم يوم شؤم عندي . فدهشت الملكة واما اندري فاردفت بقولها . نعم هو يوم شؤم لانك لا تجهلين ايتها السيدة ان السر الذي لديَّ يقتل حب المسيو دي شارني متى اطلعته عليه

فسالتها الملكة بدهشة . وهل تقولين للمسيو دي شارني ان جيلبار اعتدى عليك في صباك ؟ وان لك منه ولدًا ؟

فصاحت اندري ومن تحسبينني ايتها السيدة حتى ترتابي في ذلك

فتنفست الملكة الصعداء كمن استراح بعض الاستراحة . اما اندري فقد ظهرت عليها لوائح الانقباض الشديد لان هذا الكلام وضع نصب عينيها استحالة بلوغها

الهناء في هذه الحياة · فشعرت ماري انطوانت بذلك فزادت في ملاطفتها ومجاملتها لاسيما وانها عرفت ما كانت تريد معرفته من امرها واما اندرى فانها كانت تستثقل تلك المجاملة فسلمت بفتور وخرجت وفي نفسها مرارة اليأس

وبعد خروجها قالت الملكة في نفسها كمن يتهدد ويتوعد : يا ذات القلب الماسي والنفس النارية لا اكره احدًا في العالم كما اكرهك · آه ·· ولكنه لا بد ان يحبك يومًا من الايام

ثم انها نادت خادمها وبير واستفهمت منه متى ياتي الدكتور جيلبار ودخلت الى غرفة النوم بعد ان اوصت نساءها ان لا ينبهنها اذا استغرقت في النوم · لانها كانت قد توقعت لنفسها في تلك الليلة ارقًا شديدًا

الفصل الثاني والعشرون

الخباز فرنسوى

حادث هائل

وفي الحقيقة ان الملكة ارقت في تلك الليلة ارقًا شديدًا وقد صرفت قسمًا طويلاً من الوقت في البكاء · ولذلك لم تنتبه من النوم الا في الساعة التاسعة

غير انها عند انتباهها من النوم سمعت في القصر حركة اقدام كثيرة فنادت احدى نسائها وسالتها الخبر فاخبرتها ان الشعب في فتنة وهياج في باريز فلبست ملابسها وحدها ثم استدعت خادمها وبير وسالته عن سبب الفتنة فاجابها ان التقارير متناقضة ولذلك لم يعرف احد سببها بعدُ فامرته الملكة ان يذهب بنفسه ويطلع على اسباب الفتنة وان يوصي نساء القصر بادخال الدكتور جيلبار اليها حال حضوره لانه لا بدَّ ان يكون مطلعًا على هذه الحادثة

فخرج وبير من القصر يقصد مكان الفتنة فكان في طريقه يجد الشعب راكضًا الى ذلك المكان افواجًا افواجًا وهم يصرخون ويصخبون

وما زال وبير سائرًا حتى بلغ ساحة كنيسة نوتردام فابصر هناك شعبًا هائلاً متجمهرًا وهو يصرخ صراخًا طبق العنان فكان يُسمع من الوف من الافواه هذا النداء : هذا تجوّع الشعب ·· اقتلوه اقتلوه ·· شنقًا بالمصباح

فمد و يبر بصره فابصر الوفاً من الناس مجتمعة وهي تتقاذف رجلاً وتتلاعب به تلاعب الاولاد بالاكر . ولا معين لهذا الرجل التعيس الا رجل آخر ممسك به يتبعه حيثما سار وهو يخاطب الناس ويحضهم على السكون . وكان الرجل الثاني هو الدكتور جيلبار

فاندس و يبر بين الناس حتى وصل الى الدكتور والرجل الذي تجمهر الشعب حوله هذا التجمهر الهائل فسمع و يبر الدكتور جيلبار يصيح بمن حوله : ايها الاخوة . ان هذا الرجل فرنسوي مثلكم فمن الواجب ان تحاكموه قبل الفتك به فخذوه الى مركز البوليس وحاكموه هناك ثم افعلوا فعلكم فيه .

فلما سمع و يبر ذلك تقدم من الدكتور جيلبار فعرفه الدكتور فسلم عليه باختصار فقال له و يبر دافع دفاعاً حسناً ايها الدكتور فانا ذاهب لاخبار رجال البوليس في المركز القريب

قال ذلك ثم اندس ثانية بين الجمهور قاصداً مركز البوليس

وكأن شهامة الدكتور جيلبار ووقوفه وحده وقفة المدافع عن ذلك الرجل المسكين قد استفزا بعضاً من اصحاب النفوس الابية فانضموا اليه يطلبون ما طلبه ولكن الشعب ما كان يسمع لهم . وبعد برهة يسيرة علت ضوضاء جديدة وسمع بعضهم يقولون جاء الضباط جاء الضباط . ثم بعد هنيهة ظهر الضباط فتفرقت الجماهير عن الرجل لا خوفاً ولكن لان دعاة الفتنة لم يكونوا بعدُ قد اصدروا الامر بارتكاب الجناية

فساق الضباط ذلك الرجل الى المجلس البلدي ووراءه الوف مؤلفة من جماهير الشعب فدخلت تلك الجماهير كلها الى ساحة المجلس وانضم اليها من جميع الاحياء الوف اخرى من المتشردين والجياع والذين لا عمل لهم فازدادت الضوضاء والغوغاء واشتد صراخ المتجمهرين طالبين قتل ذلك الرجل الذي يجوّع الشعب

واما قصة هذا الرجل فهي من الغرابة بمكان ولا باس ان نوردها هنا ببعض التفصيل لانها حادثة تاريخية من اشهر حوادث الثورة . فنقول

يُدعى هذا الرجل « دنيس فرنسوى » وكان خبازاً ينشئ مخبزاً في مكان على مسافة مائتي متر من دار رئاسة الاساقفة في باريز . وكان المجمع الوطني يعقد جلساته في هذه الدار بعد عودة الملك الى باريز فكان اعضاؤه اذا جاعوا في اثناء الجلسات الطويلة التي يعقدونها يبعثون الى الخباز فرنسوى فيجدون عنده ارغفة صغيرة يصنعها لهم خاصة من الخبز الابيض الجيد فياكلون مسرورين بسد جوعهم مع ان الوفاً من اهالي باريز كانوا جياعاً في تلك الايام لندرة الخبز وقلة الدقيق

وبسبب قلة الخبز كانت الحكومة قد عينت اربعة رجال من رجال البوليس لكل فرن من افران باريز خوفاً من هجوم الشعب على الافران كما حدث غير مرة · وكانت الافران لا تتم خبز الخبز حتى تتخاطفه الايدي

ففي هذا اليوم وهو يوم ٢١ اكتوبر قصدت امرأة طاعنة في السن مخبز فرنسوى وطلبت منه خبزاً · وكان فرنسوى قد اتم بيع الخبزة السادسة وهو يعمل في خبز الخبزة السابعة فاجابها انتظري قليلاً لتنضج الخبزة السابعة فتاخذي خبزاً طريئاً · فصاحت العجوز كلا بل اريد خبزاً الآن وهذا ثمنه · فاقسم لها الخباز انه قد باع جميع الخبز الذي لديه فقالت له دعني اذاً ادخل وافتش حانوتك فادخلها فرنسوى فجعلت تفتش جميع الخزائن فعثرت في تفتيشها على ثلاثة ارغفة كان عمال المخبز قد خبئوها ليقتاتوا بها اذا لم يفضل من الخبز شيء فلما ابصرت العجوز هذه الارغفة تناولت احدها وخرجت من دون ان تدفع ثمنه· واذ طلب الخباز ثمنه منها اخذت تصيح في السوق — يا مجوع الشعب· يامخفي الخبز· فركض الناس على صراخها فقصت عليهم ان ذلك الرجل يخفي الخبز في مخبزه ولا يبيعه للشعب الذي يموت جوعاً ثم اعادت ذلك الصياح · فخرج على صراخها من حانة قريبة من هناك ضابط من قدماء الضباط واخذ يصيح صياحها : امسكوا مجوع الشعب فهرول الناس من كل جانب وتجمهروا عشرات ومئات

وكانوا في ذلك الوقت وقت الضيق والمجاعة اذا لقبوا احداً مجوع الشعب ونادوا عليه ذلك النداء فذلك بمثابة طلبهم الفتك به لانهم كانوا قد آلوا على انفسهم ان يقتلوا كل خباز يخفي الخبز ويجوع الشعب

فلما اجتمع الناس امام مخبز الخباز فرنسوى طلبوا ان يدخلوا ويفتشوا حانوته ليعرفوا صحة تلك الدعوى او كذبها فادخلهم الرجل الى حانوته ففتشوه فوجدوا في خزائنه الرغيفين اللذين اخذت العجوز ثالثهما وعشرات من الارغفة الصغيرة التي كان يصنعها لاعضاء المجلس الوطني

فلما عثروا على هذه الارغفة هاجوا وماجوا واخذ كثيرون يصيحون — اقتلوا المجوع اقتلوا المجوع

وفي الحال هجم بعضهم عليه وزحموه من كل جانب وصاروا يلطمونه ويتخاطفونه ويتقاذفونه صارخين « اشنقوه اشنقوه» وفي هذه الساعة اتفق مرور الدكتور جيلبار قاصداً قصر الملك فهجم على الشعب واستخبر الخبر ثم شق الجمهور حتى وصل الى الخباز وصار يدافع

عنه كما تقدم الى ان ساقوه الى دار المجلس البلدي

وكان الوقت صباحاً فلم يكن بالبي ولافاييت قد قدما بعد الى المجلس . وكان ذلك في علم مثيري هذه الفتنة وذلك مما كان يزيدهم جرأة ووقاحة . فبعثوا دعاتهم من جديد بين الجماهير ليضرموا نار الغضب والحقد في نفوسها . فكانوا يقولون لهم من كل جانب « ان هذا المجوع صنع ما صنع بامر البلاط ولذلك يسعون لانقاذه » فكان الشعب يزداد صراخاً « اشنقوه اشنقوه »

فالفوا في الحال محكمة وقتية في دار المجلس البلدي لمحاكمة الرجل لان الشعب فرغ صبره فظهر من شهادات جيران هذا الخباز انه من اشد الخبازين نشاطاً واحسنهم اخلاقاً فانه كان من بداية الثورة يخبز عشر خبزات في النهار بسرعة غريبة و يبيعها لكل من يطلب منه ذلك . ولما كان بعض زملائه الخبازين ينفد منهم الدقيق (الطحين) كان يعطيهم من دقيقه و رغبة في الاسراع في العمل قياماً بحاجات الشعب لم يكتفِ بفرنه بل استاجر فرناً آخر ليجفف فيه الحطب تسهيلاً للعمل

فلما سمعت المحكمة كل هذه الشهادات تحققت ان هذا الرجل بريء وانه يستحق مكافاة على حسن عمله لا عقاباً

اما الجماهير التي كانت مجموعة هناك فانها لم ترد ان تفهم شيئاً من ذلك ولما طال عليها الانتظار ولم يسلموها فريستهـا هجمت مئات والوفاً كالبحر الزاخر الى قاعة المحكمة فدفعت الحراس والحاضرين واخذت الخباز المسكين وخرجت به تجره جرًا على درج السلم وارض المجلس فتهشم وجهه تهشماً مخيفاً وصار في حال يرثي لها من الالم والخوف فبعد ان كان يصرخ طالباً الحياة صار الآن يصرخ طالباً الموت للاستراحة من هذا العذاب

وكان ملاك الموت قريباً في ذلك الزمان فما كان يناديه احد الا ويسمع نداءه ويُسرع اليه . ولذلك لم يصرخ فرنسوى بقوله « اقتلوني ولا تعذبوني » حتى مُدت الايدي اليه من كل جانب فما هي الا لحظة حتى فُصل راسه عن جسده ووُضع على راس رمح حمله احد الحاضرين

فلما ابصر الدكتور جيلبار ذلك خرج من المجلس صارخاً : بيلو بيلو ما اسعدك لانك سافرت من باريز

ثم سار في طريقه منقبض النفس وهو يتامل في الحادث الفظيع الذي حدث . ولكنه لم يصل الى جسر بالاتيه حتى شعر بان شخصاً يمس ذراعه . فالتفت ليرى هذا الشخص

فما وقع بصره عليه حتى اجفل جيلبار واراد الوقوف والكلام معه لانه عرفه ٠ اما الرجل المجهول فانه وضع اصبعه على فمه يساله بهذه الاشارة ان يسكت ثم تناول ورقة ووضعها في يد الدكتور وسار في طريقه قاصداً دار رئاسة الاساقفة

وكانت امراة واقفة هناك فلما وقع نظرها عليه صاحت برفيقاتها : هوذا « ميرابو » نصير الشعب

فصاحت رفيقاتها حينئذ « ليحيى ميرابو » فانتبه حينئذٍ الشعب الحاضر للرجل المجهول واخذوا يصيحون عشرات ومئات « ليحيى نصير الشعب ٠ ليحيى الوطني العظيم »

ولما سمعت مؤخرة الجماهير التي كانت تحمل راس الخباز فرنسوى هذا الصراخ ركضت الى حيث كان ميرابو فاحاطت به احاطة السوار بالمعصم واخذت تصيح « ليحيى ميرابو » وما زالت به حتى اوصلته الى دار رئاسة الاساقفة حيث كان يقصد حضور جلسة المجمع الوطني

الفصل الثالث والعشرون

الفوائد التي تحصل من راس مقطوع

ولما غاب ميرابو عن نظر الدكتور جيلبار فتح الدكتور الورقة التي كان قد دفعها اليه ميرابو وقرأها مسرعاً ثم اعاد قراءتها بامعان ٠ وبعد ذلك سار نحو التويلري بخطى واسعة فوجد ان لافاييت قد زاد عدد حراس القصر حين حدوث الفتنة زيادة في حراسة الملك فابلغ الحراس اسمه فاذنوا له في الدخول ٠ ولما صار داخل القصر سار تواً الى غرفة الملكة بناء على امرها

ولكنه ما دخل عليها ووقع نظرها عليه حتى صاحت صيحة من صميم قلبها

ذلك انها ابصرت نقطاً من الدماء على قميص الدكتور جيلبار ورات سترته ممزقة من احد جوانبها

اما الدكتور فانه انحنى امامها باحترام وقال ٠ عفواً يامولاتي اذا كنت اقابلك بهذه الهيئة فانني كرهت الذهاب لتغيير ملابسي خوفاً من اطالة انتظارك لي

فقالت الملكة وماذا حدث لذلك الرجل التعيس يامسيو جيلبار فقال انهم قتلوه ياسيدتي وقطعوه ارباً اربا ٠ فقالت باضطراب وهل كان مجرماً قال بل كان بريئاً فصاحت

الملكة : هذه هي ثمرة ثورتكم يامسيو جيلبار · انهم كانوا في البداية يقتلون الاشراف والموظفين والحراس اما الآن فانهم صاروا يقتتلون فيما بينهم · اما من سبيل لمعاقبة اولئك الجناة والاشقياء

فقال جيلبار سنبذل الجهد في ذلك ياسيدتي ولكني انا افضل تدارك الامور قبل وقوعها على المعاقبة عليها بعد وقوعها · قالت وما السبيل الى ذلك فانه لا شيء احب من ذلك الي والى الملك · قال السبيل الى ذلك ياسيدتي ان نولي زمام الاحكام الى رجال يثق الشعب بهم فان هذا الهياج لا منشأ له غير سخط الشعب على القابضين على ازمة الاحكام وعدم ثقته بهم

فقالت اظنك عدت الى مسالة تولية لافاييت وميرابو · فقال كنت اظن ياسيدتي انك دعوتني لتبلغيني انك استطعت اقناع الملك بان يرضى بتاليف الوزارة التي عرضتها على جلالته · قالت انك بقولك هذا يامسيو جيلبار تقع في خطاء وقع فيه جميع الناس وهو ظنهم انني ذات سلطان على الملك احمله على ما اشاء · والحقيقة ان التي لها عليه سلطان انما هي مدام اليزابت · فقال جيلبار ومع ذلك فانني مقتنع بان الملكة لو قاومت انفتها لاستطاعت اقناع الملك بهذا الامر · قالت وهل لا تحسب انفتي في محلها ايها الدكتور فاجاب جيلبار

في السياسة لا انفة ولا كراهة ياسيدتي وانما فيها مصالح او مبادىء فمتى جمعت المصلحة قوماً من الساسة انشات بينهم تضامناً ولو كانوا لا يحبون بعضهم بعضاً · وكذلك المبادىء · غير انني اصرح بشيء فيه عار لرجال السياسة في اكثر الاحيان والازمان وهو ان رباط المصالح قد يكون اشد واقوى من رباط المبادىء

فقالت الملكة وقد نظرت الى الدكتور بهيئة جدية · كيف تشير علي ايها الدكتور بان اثق بالرجل الذي اثار الشعب علي في ٥ و٦ اكتوبر وان احالف الخطيب الذي اهانني من منبر الخطابة

فاجاب جيلبار : صدقيني ياسيدتي ان ميرابو لم يثر الشعب في ٥ و٦ اكتوبر وانما الذي اثار الشعب في ذينك اليومين قوة هائلة · يد سرية صنعت ما صنعت تحت جنح الظلام · وقد آلت هذه اليد السرية على نفسها ان تهدم كل عرش في العالم لا عرش فرنسا فقط · وربما استطعت بعد حين مقاومتها وجهاً لوجه متى قبضت عليها · اما ميرابو فانه لم يعرف باخبار ٥ و٦ اكتوبر الا من المجمع الوطني نفسه

قالت وهل تنكر ايضاً انه اهانني وهو يخطب في منبر المجمع

فقال جيلبار اسمحي لي ياسيدتي ان اعرفك بميرابو لانك لا تعرفين اخلاقه . فان هذا الرجل هو من الرجال الذين يقدرون نفوسهم قدرها ويعرفون مبلغ قوتهم وكثرة الفوائد التي يجنيها الملوك من استخدامهم . ولذلك فهم يسخطون كل السخط كلما رأوا الملوك لا يعبئون بهم مع عظم الفوائد التي تنتج عنهم . وهذا سبب سخط ميرابو . فلا تعجبي ياسيدتي ان يكون ميرابو قد اتخذ كل طريقة حتى طريقة الاهانة لاستلفات نظرك اليه . لانه يعتبر انك اذا التفتِ اليه وانت غضبي من تلك الاهانة فذلك خير له وادعى الى كبريائه من ان لا تلتفتي اليه ابداً

اما الملكة فاعجبها هذا القول فلبثت مبهوتة ثم قالت . اذاً انت معتقد ان هذا الرجل يرضى بالانحياز الينا. فاجاب جيلبار لا ريب في ذلك عندي يامولاتي فمثل ميرابو والملكية مثل جواد سائر في طريقه واذا حاد الجواد عن الطريق فبجذبة واحدة بعنانه يعود اليها. فقالت الملكة ولكن اذا رضيت انا موافقة هذا الرجل فانني لا اضمن موافقة الملك لان الملك يحسبه عدوّاً . فقال جيلبار كلا يامولاتي ان ميرابو ليس بعدو للملك . فاني نظرته على طريق فرساليا لما كان الملك عائداً منها الى باريز . فقطعت الملكة كلامه قائلة . اظنك نظرته مسروراً بظفره معتزاً بقوته . فقال بل رايته مرتاعاً للاخطار التي كانت تتهددكما من كل جانب . وهذا ما قاله لي يومئذ بهذا الشان . قال « اذا كنتَ قادراً على اقناع الملك والملكة بالخروج من باريز فانك تخدمها وتخدم فرنسا خدمة نافعة . ومتى عزما على ذلك فاخبرني الخبر لانقذهما بطريقة لديَّ »

فبهتت الملكة وقالت هل ان المسيو دي ميرابو يعتقد بوجوب سفرنا من باريز ايضاً . فقال جيلبار كان يعتقد بوجوب ذلك من قبل اما الآن فقد غير رايه . قالت ومن اين علمت ذلك قال من ورقة دفعها اليَّ في هذا الصباح بعد حادثة الخباز فرنسوى . فدهشت الملكة وسالت جيلبار : ورقة من ميرابو نفسه . قال نعم ياسيدتي واليك هذه الورقة . انما ارجو المعذرة لانها غير مرتبة ولا لائقة بجلالتك لانها كُتبت على مائدة بائع خمر فاجابت لا بأس باس فان كل شيء على غير ترتيب ولانظام في هذا الزمان ثم تناولت الورقة وقرأت فيها ما يلي

« ان الحادثة التي حدثت اليوم غيرت مجرى الامور

« يمكن الحصول على فوائد كثيرة من هذا الراس المقطوع

« فان الخوف سيستحوذ على المجمع الوطني فيطلب اعضاؤه اقامة الاحكام العسكرية
« والمسيو دي ميرابو قادر على جعل المجمع يقرر اقامة الاحكام العسكرية
« وهو قادر ايضاً ان يحمل على ناكار الوزير الاول ويسقط وزارته
« ومتى سقطت هذه الوزارة فليعهدوا الى ميرابو ولافاييت ان يؤلفا وزارة جديدة والمسيو دي ميرابو يضمن حينئذٍ تحسن الاحوال من كل وجه »

ولما اتت الملكة على هذه الورقة التفتت الى جيلبار وسالته ما رايك في هذا يامسيو جيلبار . فاجاب رأيي ياسيدتي ان ميرابو مصيب وانه لا ينقذ فرنسا الا الوزارة الجديدة التي يقترحها

فسكتت الملكة هنيهة ثم قالت فليبعث الي اذاً ببيان اسماء الرجال الذين يريد ان تتالف منهم الوزارة الجديدة وليكتب لي تقريراً عن الحالة السياسية الحاضرة

فقال جيلبار وهل اطلب منه الآن مقدمةً لهذا الاتفاق ان يسعى في اقامة الاحكام العسكرية واعادة السلطة للقوة التنفيذية . قالت فليسعَ ولكنني اعيد عليك قولي بانني لا اضمن موافقة الملك اما انا فموافقةٌ كما ترى . فسكت جيلبار عن هذا القول لانه كان يعتقد بانها ذات سلطان على الملك فمتى شاءت حملته على ما تريد . ثم سالها وهل تاذنين لي جلالتك بان ابلغ ميرابو بانك تطلبين منه بياناً باسماء الوزراء وتقريراً عن الحالة الحاضرة فقالت الملكة قل ما له شئت ان تقوله ولكن اذكر انك تباحث رجلاً حديث العهد في صداقتنا وربما عاد فانقلب وصار عدواً لنا

فقال جيلبار اما هذا الامر فكوني خلية البال منه ياسيدتي لاني اعرف الناس باخلاق ميرابو . فاذني لي الآن ان اسرع الى المجمع الوطني لاطلب من ميرابو ان يعمل بما تم عليه الاتفاق

ثم ان جيلبار سلم وخرج مسرعاً . فلما وصل الى قاعة المجمع الوطني راى الاعضاء في هياج شديد لان الخباز فرنسوى الذي قتلته العامة في ذلك النهار هو رجل المجمع وخادمه لانه كان يعدُّ الخبز لاعضائه فضلاً عن حدوث هذه الجناية على مقربة من مكان المجمع . وكان الاعضاء يجولون في القاعة ذهاباً واياباً الا ميرابو فانه كان جاثماً في كرسيه جثمة الاسد في عرينه وهو ثابت الجاش هادىء البال

ولما دخل جيلبار الى قاعة المجمع استنار وجه الاسد فاشار اليه جيلبار براسه اشارة عمودية من فوق الى اسفل دلالة على نجاح مهمته ثم انه مزق ورقة من دفتر بجيبه وكتب

عليها بقلم رصاصي ما يأتي

« ان احد الفريقين الذي تحسبه واحسبه اشد سلطاناً ونفوذاً قد وافق على اقتراحك

«وقد طلب بياناً بمشروع الوزارة الجديد وتقريراً عن الحالة السياسية الحاضرة . فابعث الآن بالاول واكتب الثاني غداً

« اسعَ في اعادة السلطة للقوة التنفيذية والقوة التنفيذية تعتمد عليك »

ثم ان جيلبار طوى هذه الورقة وكتب عليها هذه الكلمات « الى المسيو دي ميرابو » ونادى احد حراس المكان فدفعها اليه ليوصلها الى صاحبها

فتناولها الحارس وسار توّاً الى ميرابو فدفعها اليه

فتناولها ميرابو بعدم اكتراث كانه يتناول شيئاً لا يهمه ثم اخذ يقراها بعدم اكتراث ايضاً كانه غير عابىء بموضوعها

ولم يظهر على وجهه في اثناء قراءتها لا دليل على رضاه ولا دليل على سخطه . فمن نظره يقرأها لم يعلم اذا كان ساخطاً منها او راضياً عنها

وبعد ان اتم قراءتها مزق ورقة من دفتر بجيبه وكتب عليها بقلمه سطوراً كثيرة بهيئة لا شيء من الاكتراث والمبالاة فيها . ثم طوى الورقة ودفعها الى الحارس وقال له: اوصلها الى الذي اعطاك الورقة التي جئتني بها . فاخذها الحارس الى الدكتور جيلبار ففتحها الدكتور باهتمام شديد فوجد فيها هذه الاسطر التي لو عُمل بها لتغيرت مستقبل فرنسا كلها . وهذا نصها

« ساسعى

« غداً ابعث بالتقرير اليك

« اما اسماء الوزراء فهذا بيانها

« المسيو ناكار . وزير اول (يجب ابقاؤه في الوزارة انتفاعاً بشهرته لدى الشعب وافناء لقوته)

« رئيس اساقفة بوردو . لوزارة العدلية (ونطلب منه ان يحسن اختيار عماله)

« الدوق دي ليانكور . لوزارة الحرب (وهو رجل ذو شرف وعزم وحزم فضلاً عن حبه للملك وهذا مما يضمن لنا سلامة الملك)

« الدوق دي لاروشفوكول . لقصر الملك ولمدينة باريز (ويكون « توريت » معه)

« الكونت دي لا مارك · لوزارة البحرية (لا يمكن تعيينه لوزارة الحرب لان هذه الوزارة للدوق دي ليانكور · والمسيو دي لامارك مشهور بالامانة والحزم والجد في العمل)

« اسقف دوتين · لوزارة المالية

« الكونت ميرابو· من مستشاري الملك · من غير وزارة · (لم يبقَ محل في هذا الزمان للاوهام وبناء عليه يجب على الحكومة ان تصرح علانية بانها لا تستند منذ الآن فصاعداً الا الى المبادىء الصحيحة ولا تتخذ اعواناً لها الا من اصحاب المواهب والاخلاق)

« تارجه · يعين محافظاً لباريز

« لافاييت· من مستشاري الملك · يرقى الى رتبة مارشال و يعين قائداً عاماً للجيش رغبة في تنظيمه · وقيادته الى اجل

« المسيو دي مونمورين · والـ · ودوق · (وتوفى ديونه)

« المسيو دي سكور· لوزارة الخارجية

« المسيو مونيه · لادارة مكتبة الملك (١)

ولما اتى جيلبار على قراءة هذه الورقة تامل في سطورها فظهر له ان احرفها مضطربة بعض الاضطراب مما يدل على ان ميرابو كتبها و يده ترتجف قليلاً من تاثره وان كان لم يبدُ في وجهه شيء من هذا التاثر · ثم ان جيلبار كتب ثانية الى ميرابو الورقة التالية

« اني عائد الى صاحبة المنزل الذي اعتمدنا على استئجاره لابلغها الشروط التي اقترحتها بشان الاستئجار

« ابعث اليَّ حين انتهاء الجلسة بورقة تحتوي على نتيجتها

ثم عاد جيلبار الى التويلري وكان وبير يقص في هذه الساعة على الملكة بشان الخباز فرنسوى قصة اثرت فيها اشد تاثير و بيانها ان الجماهير التي كانت حاملة راس ذلك الخباز المسكين كانت سائرة به في احد الشوارع واذا بها تسمع امراة تصيح صيحة عظيمة فالتفتوا اليها نراوها تسقط على الارض مغشياً عليها

---

(١) بعد وفاة ميرابو وجدوا ورقة كهذه الورقة في جملة اوراقه وفيها الاسماء والشروح المتقدمة وذلك مما جعل المؤرخين يرجحون ميل ميرابو الى الملكية في آخر ايامه بعد اذ كان من اشد مقاوميها

وكانت هذه المراة زوجة ذلك الخباز وقد وقع نظرها على راس زوجها المقطوع قبل وقوفها على الحادثة . ومن سوء حظها انها كانت حاملاً

فلما سمعت الملكة ذلك بكت وصاحت بو بير : اذهب واستخبر خبر هذه المراة . فاذا كانت لم تمت بعد فقل لها ان تأتي لمقابلتي . واذا كانت حاملاً كما تقول فابلغها انني ساكون عرابة ولدها

ولكن الملكة لم تتم كلامها حتى دخل جيلبار وكان قد سمعه وفهم معناه فصاح من صميم قلبه : ليت جميع الفرنسويين يسمعونك الآن ياسيدتي ليعلموا رقة قلبك وشرف اخلاقك

اما الملكة فبقيت مبهوتة لهذا الكلام لانها ذكرت الكونت دي شارني الذي كان كثيرًا ما يقول لها مثله

ثم ان جيلبار دفع ورقة ميرابو الى الملكة فتناولتها وسالته ان يبقيها لها لتنظر فيها . ثم مدت اليه يدها مودعة ليقبلها . فدهش لذلك جيلبار وقبلها

وقد دهش لانها كانت المرة الاولى التي اذنت له الملكة فيها بتقبيل يدها

ولما عاد جيلبار الى منزله وجد فيه الكتاب التالي وهو من خط ميرابو

« كانت المناقشة شديدة في الجلسة

« ولكنه تقرر مع ذلك اقامة الاحكام العسكرية

« وقد طلب روبسبيير وبوزوت تاليف محكمة عليا لمحاكمة الذين يجنون على الامة جناية كجناية هذا الصباح فجعلت المجمع يعين محكمة الشاتله الملكية للنظر في جميع القضايا المختصة بالجناية على الوطن والامة

« وقد قلت من غير تمهيد ولا محاولة ان سلامة فرنسا متوقفة على قوة الملكية . فصفق لهذا القول ثلاثة ارباع الاعضاء

« نحن اليوم في ٢١ اكتوبر فاذا قابلت يوم ٦ اكتوبر بهذا اليوم ظهر لك ان الملكية تقدمت تقدماً محسوساً »

الفصل الرابع والعشرون

مظالم الاحكام في تلك الايام

الشاتله

قال ميرابو في كتابه السابق انهُ جعل المجمع الوطني يعين محكمة « الشاتله » لمحاكمة الذين يجنون على الوطن والامة . وقد اتخذ هذا التعيين دليلاً على تقدم الملكية . فما السبب في ذلك

يُعرف السبب متى عُرفت ماهية الشاتله واهميته . ولبيان ذلك نقول

ان الشاتله كان في القرن الثالث عشر سجناً ومحكمة وقد بناه الملك فيليب اغسطس

وفي سنة ١١٨٩ اصيب هذا الملك بالجنون الذي كان فاشياً في تلك الايام (١) وهو الحروب الصليبية لاسترجاع اورشليم فحالف هذا الملك الملك ريكاردوس قلب الاسد وسافر واياه الى الاماكن المقدسة

ولكنه قبل سفره خاف ان ينقسم شعبه بعضه على بعض في مدة غيابه كما انقسم الشعب الانكليزي في غياب الملك هنري الثاني فاراد ان يشغله بشيء يصرف فكره عن الانقسام فامر المهندسين ان يشرعوا بعد سفره ببناء سور كبير حول باريز . وقد ترك لهم رسم هذا السور

الا ان المهندسين لم يعتدوا بهذا الرسم لانه كان ضيقاً وقد خافوا ان يضيق عن باريز بعد بنائه لان هذه العاصمة كانت آخذة بالنمو بسرعة غريبة ولذلك توسعوا في بناء هذا السور وادخلوا فيه جميع القرى والبلدان الصغيرة التي كانت في ضواحي باريز

وكان لكل ناحية من هذه النواحي محكمة خاصة بها وامير خاص يحكمها وهو مستقل عن باقي الامراء زملائه . فكانت هذه المحاكم المختلفة تحكم احكاماً متناقضة متباينة . فلما استفحل هذا الامر وكان ذلك في عهد لويس التاسع اصدر هذا الملك امرًا بتعيين محكمة « الشاتله » لاستئناف جميع القضايا التي تصدرها تلك المحاكم اذا شاء اصحابها استئنافها . وهكذا صارت محكمة الشاتله منذ ذلك اليوم محكمة عليا

وبديهي ان لويس التاسع لو لم يكن واثقاً بمحكمة الشاتله لما خولها هذه السلطة . وبناء عليه كانت هذه المحكمة معتبرة على مدى الاجيال محكمة ملكية

---

(١) الحروب الصليبية

ولذلك عدّ ميرابو تعيينهـا للفصل في الدعاوى الوطنية فوزًا للملكية . لان المجمع الوطني لو كان كارهًا للملكية وغير مريد لها لما رضي الشاتله محكمة وطنية

وكانت القضية الاولى التي عُهد الى هذه المحكمة النظر فيها قضية مقتل الخباز فرنسوى. فاحيل اليها الضابط الذي خرج من الحانة على صوت العجوز وصار يحرض الشعب. فحكمت المحكمة بتجريده من رتبه واعدامه فجرد منها واعدم

وكانوا قد اعدموا قبله ايضًا رجلين من القتلة وذلك من غير محاكمة مكتفين باشتهارهم بالاشتراك في تلك الجناية

ثم احيلت اليها قضيتان . الاولى قضية اوجار المتهم بانه دفع مالاً كثيرًا الى حاشية الملكة لتتمكن به من جمع الجند في ساحة مارس وقضية بيير فيكتور بزنفال الذي كان يقود الجند الالماني في باريز والمتهم بانه امر باطلاق الرصاص على الشعب

اما الشعب فانه كان لا يعبأ بالمتهم الاول ولكنه كان شديد الاهتمام بالمتهم الثاني لما ذاقه منه ومن جنوده من مر العذاب . واما الملك والملكة فانهما كانا يلحان على المحكمة بوجوب تبرءة ساحة هذين الرجلين لانهما من المخلصين للبلاط

فنظرت المحكمة في قضية الاول وبرأت ساحته . فلم يهتم به الناس كثيرًا الا انها لما شرعت في محاكمة الثاني غصت قاعة الشاتله بسكان باريز خاصتها وعامتها وكانوا كلهم ينتظرون بصبر فارغ نتيجة المحاكمة . ولكن ذلك لم يمنع المحكمة من تبرءة بزنفال ايضًا

فاستاء الشعب من هذا الظلم الظاهر

وقبل انصراف الناس من قاعة المحاكمة اخذ احد الحاضرين ورقة وكتب عليها بضعة اسطر ثم ادارها كما تدار الاسطوانة وقذف بها الى كرسي رئاسة المحكمة . فوقع نظر الرئيس عليها فمد يده وتناولها . ولما فتحها قرأ فيها الابيات الاربعة التالية

Magistrats qui lavez augeard
Qui lavez Besenval, qui laveriez la peste,
vous êtes du papier brouillard :
Vous enlevez la tache, et la tache vous reste

وهذا معناها تقريبًا

« ايها القضاة الذين برأتم ساحة اوجار و بزنفال

« والذين تبرئون الطاعون ايضاً
« انتم كورق النشاش
« ترفعون البقعة القذرة ولكنها تبقى فيكم

وكان في ذيل هذه الابيات اسم ناظمها

فلما قرأها الرئيس التفت ليجد صاحبها ٠ فرآه واقفاً على مقعد في وسط القاعة وهو يشير اليه باصبعه اشارة معناها : انا هو

فلم يجسر الرئيس ان يامر بالقاء القبض عليه ٠ وذلك لسببين ٠ الاول ان هذا الرجل كان « كاميل ديمولين » الصحافي الشهير واحد زعماء الثورة في تلك الايام والثاني ان الحق كان في جانبه

وهذه احدى نتائج الظلم في كل زمان ومكان

ثم انصرف الناس افواجاً افواجاً وهم يتحادثون بنتيجة الحكم ٠ وكان الدكتور جيلبار في جملة الحاضرين فخرج معهم ٠ الا انه ما كاد يدرك الباب حتى شعر بيد توضع على كتفه وسمع قائلاً يقول : ما رايك في هذين الحكمين ايها الدكتور

وكان الرجل الذي خاطب الدكتور يلبس ملابس تدل على انه من اوساط الناس

اما الدكتور فقد ارتعدت فرائصه عند سماعه ذلك الصوت فالتفت الى صاحبه واذ تحققه أجاب : الحكم في ذلك موكول لك يا معلم لانك تعرف الحاضر والماضي والمستقبل

فقال الرجل المجهول اما انا فاني اقول « الويل للبريء الذي يساق الى هذه المحكمة بعد هذين الحكمين »

فقال جيلبار ولماذا تحسب المتهم الذي يأتي بعدهما بريئاً

فضحك الرجل المجهول وقال « لان من نواميس هذا العالم ان الاشرار يأكلون الحصرم والاخيار يضرسون ٠

ولا ريب ان القارئ قد عرف ان هذا الرجل الذي وصفناه بالمجهول انما هو كاليوسترو الرجل الهائل الذي تقدم ذكره في غير هذا الموضع ٠

فلما سمع جيلبار الكلمة التي قالها صاحبه واظهر فيها كل ما في نفسه من الارتياب والشك في عدالة هذه الحياة رام التخلص من البحث في هذه الشؤون فمد يده الى كاليوسترو وقال استودعك الله يا معلم

فقال كاليوسترو لقد اسرعت في المسير ٠ فاجاب جيلبار ضاحكاً لدي اشغال يجب

عليَّ الاسراع اليها . قال اظنك ذاهباً الى موعد . فقال جيلبار نعم . فقال كاليوسترو وهل تقابل ميرابو او لافاييت او الملكة في هذا الموعد

فدهش جيلبار ووقف وقفة القلق الحائر لانه وجد كاليوسترو عالماً بوجود شؤون هامة بينه وبين من تقدم ذكرهم ثم قال . انك تخيفني باقوالك في بعض الاحيان . فقال كاليوسترو لا اخيفك ولا تخيفني هل لك ان تسير معي لاطلعك على امور سرية تتعلق بالامور السرية التي تجابر بها اصحابك . فازداد جيلبار دهشة فقال انني سائر معك حيثما اردت فقد اقلقت بالي بكلامك

واتفق حينئذ مرور مركبة في الطريق فنادى كاليوسترو السائق ثم ركب المركبة مع الدكتور . فالتفت السائق الى كاليوسترو كأنه عرف ان هذا الرجل هو الذي يدير حركة الاثنين فسأله . اي مكان تقصدان . فاجاب كاليوسترو خذنا الى حيث تعلم . ثم اشار الى السائق اشارة ماسونية مخصوصة

فدهش السائق لما رأى الاشارة فاجاب باشارة مثلها ثم قال. عفواً عفواً يا مولاي فانني ما عرفتك لاول مرة

فقال كاليوسترو بهيئة العظمة . اما انا فانني عرفتك لاول نظرة لانني مع كثرة رعيتي أعرف كل واحد منها

ثم ان السائق غمز خيله فسارت بالمركبة خبباً وما زالت سائرة حتى وصلت الى قصر لكاليوسترو وهو قصر دخله جيلبار قبل الآن . فنزل كاليوسترو وضيفه من المركبة ثم سال كاليوسترو السائق هل لديك شيء تقوله . فقال السائق نعم ولو لم القَ مولاي لرفعت اليه تقريراً في هذا المساء . فقال كاليوسترو تكلم . قال لا استطيع ذلك امام الغريب.

فابتعد الدكتور جيلبار لما سمع هذا القول . فدنا حينئذ السائق من كاليوسترو واسرَّ اليه اموراً لم يسمع منها الدكتور عن بعد سوى هاتين الكلمتين : ففراس، ومونسيو ولما انتهى الحديث مدَّ كاليوسترو يده الى جيبه واخرج منها ذهبين ليعطيه اياهما . فامتنع السائق وقال لا يجهل مولاي انه لا يجوز لنا اخذ المال جزاء على تقاريرنا . فقال كاليوسترو ولكني اعطيك ما اعطيكه اجرة لمركبتك لا جزاء لتقريرك فقال السائق. اما اجرة المركبة فانني اقبلها . ثم مد يده وتناول الذهبين وذهب مسروراً

اما جيلبار وكاليوسترو فانهما دخلا الى ذلك القصر ليغير كاليوسترو ملابسه

الفصل الخامس والعشرون

﴿ في قصر كاليوسترو ﴾

وكان هذا القصر قائماً في شارع سان كاود وقد تقدم ان جيلبار يعرفه لانه دخل اليه منذ ١٧ عاماً

غير انه دخله في ذلك الزمان وهو شاب فقير لا يملك شروى نقير اما الآن فهو رجل كبير . ومع ذلك فانه لم يتمالك ان يضطرب حين دخوله اليه لذكره ايامه الماضية وما كان قد شاهده فيه من غرائب الامور .

ولما صار جيلبار وكاليوسترو في القاعة التفت كاليوسترو اليه وقال ضاحكاً . اتذكر هذه القاعة ياجيلبار . فقال جيلبار كيف لا اذكرها فانها تذكرني جميلاً صنعته معي . فقال كاليوسترو دعنا من ذكر ذلك فانني لم اصنع معك شيئاً من الجميل كما تقول لانك رددت الي ما كنتَ اخذته . فقال جيلبار وهل تحسب قليلاً ان ياتيك فتى فقير فتعطيه مائة الف ريال دفعة واحدة . فقال كاليوسترو وهل تحسب انت قليلاً ان يردّ ذلك الفتى المائة الف ريال بعد اخذها دون ان يستعمل منها سوى ذهبين فقط

فاجاب جيلبار ان ذلك الفتى لم يصنع سوى صنع الرجل المستقيم . اما انت فانك كنت رجلاً كريماً

فقال كاليوسترو ضاحكاً ولكن اعلم ياجيلبار انه اهون على الانسان في هذا الزمان ان يكون كريماً من ان يكون مستقيماً . فانه من السهل عليه ان يهب من ماله مائة الف ريال اذا كان يملك ملايين ولكنه ليس من السهل عليه ان يردّ مائة الف ريال اذا كان لا يملك شيئاً

فقال جيلبار دعنا من هذا ولنعد الى موضوعنا . فقال كاليوسترو ضاحكاً . نعم فلنعد الى مشروع الوزارة . فقال جيلبار مدهوشاً اي وزارة تعني . فقال كاليوسترو وزارة يتولاها ميرابو ولافاييت . اتنكر هذه الوزارة يا دكتور . انك اذا انكرتها اضطررتني ان اعيد على مسامعك ذكر جميع الامور التي اتيتها توصلاً اليها هل تريد ذلك . فقال جيلبار وقد ازدادت دهشته نعم اريد ذلك فتكلم

فقال كاليوسترو اسمع ايها الرجل الذي لا تصدق احداً . منذ ١٥ يوماً قابلتَ الملك ورمتَ اقناعه باستمالة ميرابو اليه . ثم خرجت من لدنه ساعة دخول المسيو

دي ففراس عليه

فقال جيلبار نعم وذلك يدل على انه لم يقتل بعد كما تنبأت له

فقال كاليوسترو ولماذا لا تمهل المسكين مدة اخرى فاني لا اعهدك قاسياً الى هذا الحد . امهل نفسه قبل الخروج من جسده بقدر ما يمهل المستاجر للخروج من المنزل الذي يقيم فيه اي ثلاثة اشهر فقط . و بعد ثلاثة اشهر ترى اذا كان ما قلته صدقاً او كذباً . اما الآن فدعنا من ذلك ولنعد الى موضوعنا . فبعد مقابلتك الملك قابل الملك الملكة واستشارها فلم تعارض في ذلك الامر بقدر ما عارض الملك . هل اخطأت بشيء الى الآن يامسيو جيلبار . فقال جيلبار كلا . قال و بعد ذلك قابلت الملكة ايها الدكتور واسهبت في قولك ان خلاص المملكة متوقف على ميرابو

فقال جيلبار نعم هـذا رايي . قال كاليوسترو وهو رايي انا ايضاً ولذلك سيسقط مشروعك . فصاح جيلبار كيف يسقط . فقال كاليوسترو نعم انه سيسقط لانني لا اريد خلاص الملكية ولكن دعني الآن اكمل . فلما الححت على الملكة وجدت انها اقتنعت من كلامك فسرك ذلك وحسبت الفضل فيه راجعاً الى قوة براهينك وقد جهلت الاسباب التي حملتها برهة على التسليم

فقال جيلبار وما هي هذه الاسباب في رايك . فقال كاليوسترو ان الملكة كانت قبل محادثتها اياك بهذا الامر مجروحة جرحاً حياً فلاجئتها بهذه المؤامرة السياسية وجدت فيها تسلية وتعزية عما بقلبها من الشجن والحزن فرات ان تهتم بها . وفضلاً عن ذلك فانها كثيراً ما سمعت ان ميرابو كاره لها وانه يهينها في منبر الخطابة وان له جرأة الاسود ومنظرها فاحبت ان ترى هذا الرجل الغريب وتتلذذ برؤيته خاضعاً لها جاثياً تحت قدميها بعد ان كان من مهينيها حاسبة انها تنتقم لنفسها بذلك . افهمت الاسباب التي حملتها على الرضى بمشروعك . وقد قلت لك ان هذا المشروع سيسقط لان ميرابو مدبون والبلاط لا يفي ديونه

فقال جيلبار ولماذا لا تفيها انت يا معلم فانك وفيت قبلها ديون الكردينال دي روهان

فقال كاليوسترو انني وفيت ديون الكردينال دي روهان لان ذلك عاد علي بفائدة كبرى . فقال جيلبار وما هي هذه الفائدة قال مسالة عقد الملكة . فليحدث ميرابو حادثة كحادثة عقد الملكة وانا افي ديونه (١) ومع ذلك فهو الآن لا يعتمد علي وانما يعتمد على لافاييت

(١) مسالة « عقد الملكة » مسالة مشهورة في الدنيا كلها وقد اهتم بها جميع المؤرخين

الذي وعده بتسليفه ٥٠ الف فرنك وهو ينوي ان لا يسلفه اياها بل يتركه يركض وراءها كما تركض الكلاب في طلب الخبز

فقال جيلبار منزعجاً لهذا التشبيه . ما هذا ايها الكونت . اما كاليوسترو فانه اردف بقوله كانه يخاطب ميرابو امامه

— مسكين انت يا ميرابو . فان جميع هؤلاء الحمقى والبله الذين لك صلات بهم يحملون عقلك الكبير تبعة التبذير والجنون اللذين اصبت بهما في شبابك . وغير بعيد ان يكون للعناية دخل في ذلك تكفيراً عن ذلك الجنون . فان مونسيو يقول « ميرابو رجل لا يعرف الادب » والكونت دارتوى يقول « ميرابو رجل مبذر » وقد وفى اخوه اي اخو دارتوى ديونه ثلاث مرات . ويقول ريفارول « ان ميرابو ثرثار كبير » ويقول كيلرمي « ميرابو لص » ويقول الراهب موري « ميرابو قاتل » ويقول تارجه « ميرابو رجل ضائع » ويقول بلليتيه « ميرابو خطيب يصفر له سامعوه اكثر مما يصفقون له » ويقول شمبز نتز « ميرابو مصاب بالجدري في نفسه » ويقول لمبزك « يجب سجن ميرابو سجناً ابدياً » ويقول مارات « يجب شنق ميرابو » — مع انك ياميرابو اذا متّ غداً احتفل بك الشعب احتفالاً ما وراءه احتفال ورأيت هولاء الاقزام الذين تُشرف عليهم من سماء عظمتك والذين يضغط عليهم مجرد وجودك يمشون في جنازتك صارخين « ويل لك يا فرنسا لانك فقدتِ خطيبك . وويل للملكية لانها فقدت سندها »

فقال جيلبار وهل يخطر في بالك ان تتنبأ ايضاً بموت ميرابو

اهتماماً شديداً للوقوف على صحيحها وفاسدها . ويقول بعضهم انها من اشد الاسباب التي حملت الفرنسويين على كراهة ملوكهم والقيام للثورة عليهم . ولذلك قال كاليوسترو آنفاً ما قاله عنها

وبيان هذه المسالة الغريبة التي شغلت اوروبا كلها في ذلك الزمان ان بومر وباسانج وهما صائغا البلاط الفرنسوي شرعا في عهد الملك الخامس عشر في ابتياع انفس الجواهر التي في فرنسا واوروبا ليصيغا منها عقداً نفيساً لم يُصنع مثله في الدنيا ويبيعاه الى مدام دي بارّي محظية الملك لانها كانت مولعة بالجواهر ولعاً شديداً . ولكن الملك لويس الخامس عشر توفي من سوء حظ الصائغين قبل شرائه العقد لعشيقته وخلفه الملك لويس السادس عشر الذي تزوج بالملكة ماري انطوانت فعرض الصائغين عقدهما على الملكة . وكانت قيمته مليون وستمائة الف فرنك ...

فالتفت كاليوسترو الى جيلبار وقال · وهل تعتقد حقيقة ان ميرابو يحيى بعد اليوم حياة طويلة · انظر الى دمائه التي تغلي غلياناً في عروقه · انظر الى قلبه العظيم الذي تخنقه رغائبه · انظر الى نفسه المتقدة التي تاكل بعضها اذ لا تجد ما تاكله· انظر الى كل ذلك واحكم بعد هذا اذا كان صاحبها يبقى في الحياة وقتاً طويلاً · الا تعلم ان قوى الانسان مهما كانت عظيمة فانها تنحل شيئاً فشيئاً وتضعف قليلاً قليلاً اذا استمر اصطدامها بالمصاعب التي لا يمكن اجتيازها · اتحسب ان الرجل الكبير يستطيع مقاومة الناس الصغار الى ما لا نهاية له دون ان تخور عزائمه · وهذا ميرابو يقاوم عبثاً صغار الناس منذ سنتين فانهم يسحقونه كل حين بهذه الكلمة « رجل رديء السمعة » وكأن هذه الكلمة صخرة هائلة كلما وثب ميرابو ودفعها عن كتفيه الكبيرتين عادت فسقطت عليه وسحقته · اتعلم ماذا قالوا للملك حين رضي برفع ميرابو الى منصب الوزارة · لقد قالوا له « انكم اذا استوزرتم ميرابو ياذا الجلال صاحت باريز انه سيء السمعة فتردد فرنسا كلها انه سيء السمعة وحينئذ تنادي اوروبا كلها ايضاً ان ميرابو الوزير الفرنسوي رجل سيء السمعة ولا يخفى ما في ذلك من الضرر بسمعة فرنسا نفسها » وقد قالوا ذلك كانهم يعتقدون ان الله يصنع الرجال العظام في ذات القوالب التي يصنع بها باقي الناس او كأن الدائرة العظيمة التي يصنعها ويوسعها لتسع الفضائل الكبرى لا تحتوي ايضاً بحكم الطبع على الرذائل الكبرى · فاقصر يا جيلبار انك تسعى عبثاً في جعل ميرابو وزيراً · ميرابو لا يكون وزيراً ابداً · وانما يكون وزيراً رجل بليد مثل تيرغو ورجل كبير الدعوى مثل ناكار ورجل احمق مثل دي كالون ورجل جاحد مثل دي بريين · اما ميرابو فانه استدان مائة الف فرنك وخطف امراة رجل بليد فذهبت هذه المراة واحبت ضابطاً جميلاً ثم تسممت لان هذا الضابط هجرها · ومن اجل ذلك كان ميرابو سيء السمعة وحُرم من الوصول الى الوزارة : حقاً ان الحياة رواية محزنة · ولو لم اكن قد وطنت النفس على الضحك منها والاستهزاء بها لكنت ابكي كثيراً عليها

فلما رأته الملكة اولعت به ولكن خزانة الدولة كانت فارغة من المال فكرهت شراءه فاخذه الصائغ بومر احد صاحبيه وذهب به سائحاً في عواصم العالم ليعرضه على ملوكه وملكاته لانه كان قد جاذف بكل ثروته لجمعه وصنعه فلم يبتعه منه احد بسبب ثمنه الهائل فعاد الى باريز واليأس ملء صدره فخطر له ان يعود الى عرضه على الملكة فدخل عليها في عام ١٧٨١ وانطرح على قدميها قائلاً انه عازم على الانتحار اذا كانت لا تبتاع عقده

فقال جيلبار وقد اعجبته بلاغة صديقه ولكن ماذا تستنتج من كل ذلك · فقال كاليوسترو الم تعلم بعد ما استنتجته منه · قلت واقول لك أن ميرابو الرجل العظيم · السياسي الكبير · الخطيب الذي لا مثيل له · سيصرف عمره ولا يكون وزيرًا · فان ذكاء المرء محسوب عليه

فقال جيلبار وهل ذلك لان الملك يعارض في هذا الامر · فقال كاليوسترو اذهب غدًا الى المجمع الوطني واسمع ما يقال هنالك · فقال جيلبار ولماذا لا توقفني على ذلك الان اذا كنت واقفًا عليه فقال كاليوسترو لكي لا احرمك لذة سماع الامر الجديد غدًا · فقال جيلبار ولكن غدًا لناظره بعيد · قال فاذا كنت تستبعد غدًا فاذهب معي في هذا المساء الى نادي اليعقوبيين وهنالك اوقفك على امور ذات شان

فاتفقا على الذهاب الى نادي اليعقوبيين

الفصل السادس والعشرون

✵ نادي اليعقوبيين ✵

وهو النادي الثوري الشهير

وكان هذا النادي يومئذ في بدء عهده اذ لم يكن قد انقضى بعد ثلاثة اشهر على انشائه ومع ذلك فقد بلغ عدد المشتركين فيه اكثر من ٦٠ الف عضو وبعد انقضاء سنة على انشائه بلغ عدد اعضائه اربعمائة الف رجل

فاستاءت الملكة منه وقالت له جزىء العقد وبعه أجزاء فان الناس يشترونه منك ثم امرته بان لا يزعجها مرة ثانية بمثل هذا السؤال · ولكن الملكة مع ذلك كانت شديدة الميل الى العقد وكان الصائغ عالمًا بميلها هذا · وذلك سبب الحاحه

وهنا بدأت الحادثة الغريبة التي حدثت في مسالة شراء هذا العقد · فقد كان السفير الفرنسوي في فيينا رجلاً يدعي الكردينال دي روهان من اسرة روهان الشهيرة فسخط عليه الملك والملكة فعزلاه من السفارة فعاد الى فرساليا وفي نيته استرضاء الملك · فعرف في سنة ١٧٨١ في سافرن امراة تدعى الكونتس دي لاموت فاحبها وصار يهبها الاموال الطائلة من صندوق الفقراء · فاتخذت الكونتس دي لاموت هذه الاموال سبيلاً

وكان اعضاؤه من خاصة الناس وفيهم كثيرون من ضباط البر والبحر · وكان هذا النادي بمثابة نقطة مركزية لجميع الجمعيات السرية التي كانت تعمل في فرنسا في ذلك الزمان من الجمعية الماسونية فنازلاً · وقد لقبوه بالنادي اليعقوبي لانه كان قائمًا في دير قديم يدعى دير اليعقوبيين في شارع سان اونوره

ولما وصل الدكتور جيلبار وصديقه كاليوسترو الى النادي سال كاليوسترو صديقه اتدخل الى قاعة النادي ام تصعد الى مقاعد الزائرين · فاجاب جيلبار لست عضوًا في النادي لا دخل الى قاعته فقال كاليوسترو ولكنك تعلم انني من اعضائه كما اني من اعضاء جميع الجمعيات السرية وبما انك صديقي فانك تدخل معي · فقال جيلبار بل افضل الصعود الى مقاعد الزائرين فاننا ننظر منها جميع الحاضرين · فصعد كاليوسترو وجيلبار الى المقاعد

وكانت هذه المقاعد غاصة في كل مكان بجماهير الزائرين فلم يكن فيها مكان واحد خاليًا · ولكن كاليوسترو لم يبالِ بذلك بل دنا من الصفوف المتقدمة وقال كلمة امام اثنين كانا جالسين في الصف الاول فنهضا في الحال بكل احترام واكرام وتنازلا عن مقعديهما لكاليوسترو ورفيقه · فجلس جيلبار وكاليوسترو واطلا من ذلك العلو على تلك القاعة الواسعة

الى الظهور والدخول الى البلاط فدخلت اليه وصارت من نساء الملكة

فحينئذ اخذ الكردينال روهان يلح على صديقته بان تسترضي الملكة عنه وتستأذنها بمقابلته · وكان الكردينال يومئذ عضوًا في الاكادمي الفرنسوية ومديرًا لكلية السوربون واسقفًا لستراسبورج وكان في نحو الخمسين من العمر · الا انه كان مع ذلك يعتقد الظرف واللطف في نفسه ويرجو ان تحبه الملكة · وكانت الكونتس دي لاموت رات هذا الامر موردًا غزيرًا للمال فاخذت تطمع روهان وتبلغه عن الملكة وميلها اليه امورًا لا اصل لها حتى اجترأ الكردينال وسالها ان تطلب من الملكة مقابلته على انفراد

فدبرت الكونتس دي لاموت لذلك طريقة شيطانية · فانها كانت تعرف فتاة تدعى مدموازل ديسينيين وهي شديدة الشبه بالملكة فاستدعتها ودبرت الحيلة معها على ان تدفع لها ١٥ الف فرنك ثم ذهبت الى الكردينال وقالت له ان الملكة تقابلك في هذه الليلة في احدى جوانب الحديقة المظلمة · فطار الكردينال فرحًا · وفي الساعة المعينة ادخلوه

وكانت القاعة منارة بنور ضئيل فكان الاعضاء لا يظهرون فيها الا كاشباح بعيدة وكانوا كلهم يخطرون في صحن القاعة ذهاباً واياباً وكل ملابسهم تدل على انهم من الطبقة الخاصة

وكان في جملتهم جمهور غفير من ضباط البر والبحر بملابسهم العسكرية وكثيرون من رجال الادب والفنون . فمنهم لاهارب وشنيه واندريه وسيدين وشمفور ولاكلو . ومنهم « تالما » الممثل المشهور ودافيد الرسام الطائر الصيت الذي لا يبعد ان يكون الان قد ابتاع ذلك القلم الذي رسم به رسمين واحداً من اجمل ما خطه قلم الانسان والثاني من اقبح ما رسمه الرسامون . الاول رسم « اليمين في ملعب المدينة » — انظر الجزء الاول من نهضة الاسد الصفحة ٤٦ — والثاني رسم « مارات مقتول في حمامه » . ومنهم « فرنه » الذي عُين عضواً في الاكادمي مكافاة له على رسمه رسم « فوز بول واميل » والذي يجهل وجود ضابط كورسيكي كان في هذه الساعة مستنداً الى ذراع تالما مع ان هذا الضابط سيجعله في المستقبل يرسم خمسة رسوم من اجمل ما خطه قلم الانسان وهي « اجتياز جبل سان برنارد » « معارك ريفولي » « واقعة مارانجو » « واقعة دوستريتز » « واقعة واكرام » ذلك ان هذا الضابط يدعى الضابط بونابرت

تحت جنح الظلام الى المكان المعين في الحديقة وهو مكان مظلم محفوف بالازهار فانتظر الكردينال فيه قدوم الملكة . وبعد هنيهة راى خيالاً ناصع البياض له قامة الملكة وهيئتها متقدماً منه فطار صوابه وخف لاستقباله فتناول الخيال وردة وقدمها اليه قائلاً « فلننسَ الماضي » ولكن الخيال لم يفه بهذه الكلمة حتى ركضت الكونتس دي لاموت قائلة « لقد جاءوا لقد جاءوا » تعني بذلك اناساً مفاجئين . ثم قبضت على ذراع الكردينال وذهبت به وهو في اشد حالات التاثر والانفعال

اما الشخص الذي دفع الوردة الى الكردينال فلم يكن سوى المدموازل ديسينين التي تقدم ذكرها . واما الملكة فالمؤرخون العارفون يرجحون انها كانت واقفة في مكان بعيد تفرج همومها بمشاهدة ذلك المنظر المضحك . ولكن اعداءها يزعمون ان الشخص الذي قابل الكردينال كان نفس الملكة وهو امر مستحيل كما ان اصدقاءها يزعمون ان الملكة كانت جاهلة كل هذه الحادثة وهو امر بعيد ايضاً لاسباب لا محل لذكرها

وبعد هذه الحادثة صار الكردينال يكتب للملكة رسائل حب ووداد فكانت الكونتس دي لاموت تاخذ منه هذه الرسائل وتاتيه باجوبتها زاعمة انها من خط الملكة

ومنهم « لاريف » الممثل الذي كان مناظرًا لتالما والذي كان يفضل فولتير على كورنيل وبلوى على راسين . ومنهم لايس المنشد الشهير ولافاييت ولامث وديبور وسياياس وتوريت وشابليه ولانجينه ومونلوزيه وكلهم من مشاهير الرجال . وفي وسطهم كلهم رجل شامخ الانف عالي الجبهة وهو الخطيب « بارناف » نائب كرنوبل الذي كان بعضهم يعتبرونه مناظرًا لميرابو في الخطابة مع ان ميرابو كان يسحقه سحقاً كلما خطر له ان يضع قدمه عليه

فاجال جيلبار نظره في اولئك الرجال مرتاحاً لما كان يشاهده عليهم من دلائل الارستوقراطية ثم قال لكاليوسترو . اي رجل بين هؤلاء الرجال يبغض الملكية بغضاً حقيقياً

فقال كاليوسترو هل انظر الى ذلك بعيني ام بعيون الناس ام بعيني المسيو ناكار او الراهب موري . قال بل انظر بعينيك فقال كاليوسترو هنا رجلان كما ذكرت . فقال جيلبار ليس كثيرًا ان يكون بين اربعمائة رجل رجلان يكرهان الملكية

فقال كاليوسترو بل ذلك كثير اذا كان احدهما يقتل لويس السادس عشر والثاني يخلفه

فارتعدت فرائص جيلبار عند هذا الكلام ثم قال اذًا انت تزعم وجود بريتوس وقيصر هنا . فقال نعم وقد صدقت فقال جيلبار ارني اذًا هذين الرجلين . فقال كاليوسترو بايهما نبتدئ . فقال جيلبار لنتبع الترتيب ولنبدأ بالذي يهدم اولاً . فمد كاليوسترو اصبعه مشيرًا وقال انظر الى ذلك الرجل

والحقيقة انها كانت من خط عشيق للكونتس كان يدعى ريتو دي فيلييت وفي ذات يوم ورد على الكردينال كتاب من الملكة كما كانت تقول الكونتس وهي تساله فيه ان يبعث اليها بمائة وخمسين الف فرنك لانها محتاجة الى المال . فدفع الكردينال هذا المبلغ الى الكونتس دي لاموت في الحال . ومنذ هذا الحين صارت الكونتس وزوجها يسرفان ويبذران . واذا سالهما احد من اين لكما كل هذا المال اجابا انه من فضل الملكة

فظهر من ذلك للناس علو مكانة الكونتس وزوجها في البلاط فجاءها في ذات يوم احد اقرباء الصائغ باسانج احد صاحبي العقد وسال الكونتس ان تتوسط لدى الملكة في شرائه فلم تعده الكونتس بشيء ولكنها عادت فراجعت فكرها فوجدت لنفسها في هذا الامر ربحاً عظيماً فقصدت صاحب العقد بعد انقضاء بضعة اسابيع وابلغته ان الملكة تريد شراء العقد

فنظر جيلبار الى المكان الذي اشار اليه كاليوسترو فوقع نظره على رجل مستند الى المنبر وجسمه محجوب بالظلام وليس فيه شيء ظاهرًا سوى وجهه الذي كانت تنيره بعض الاشعة الضئيلة · فتأمل جيلبار هذا الوجه فوجده نحيفًا اصفر وفيه لوائح الجمود والسكون · فقال ليس هذا الوجه وجه بريتوس او كرومويل · فضحك كاليوسترو وقال نعم ان هذا الرجل لا يشبه بريتوس ولا كرومويل ولكن اذكر قول قيصر «انني لا اخشى اولئك الرجال السمان الذين يصرفون نهارهم على المائدة وليلهم في الملاهي وانما اخاف اولئك الرجال النحاف الاجسام الصفر الوجوه الذين يكثرون من التامل والافتكار» فانظر · الا ينطبق هذا القول على هذا الرجل · فقال جيلبار بلى فقال كاليوسترو وهل عرفته قال اظنني عرفته اما هو نائب داراس في المجمع الوطني فقال كاليوسترو هو هو فقال جيلبار اما هو ذلك الرجل الذي لا يصغي اليه احد كلما وقف في منبر الخطابة فقال كاليوسترو هو هو فقال جيلبار اليس اسمه مكسيميليان دي روبسبير فقال نعم · قال جيلبار فاي شان يكون في المستقبل لرجل ضعيف خامل كهذا الرجل

فقال كاليوسترو وهل تظنه انت ايضًا خاملاً قاصرًا كما يظنه باقي الناس · نعم انه ليس لروبسبير منظر ميرابو الاسدي ولا جرأة بارناف ولا منطق سياباس ولكنه رجل قانوني مستقيم بل انه الاستقامة المتجسدة · فلا تستغرب ان يصل الى الدرجة التي ذكرتها

فقال جيلبار ولكن من اين اتى هذا الرجل وما هو اصل عائلته ·

فاجاب كاليوسترو على الخبير بها سقطت فانني اعرف الناس بعائلة روبسبير · ان

ولكنها تكره شراءه بنفسها ولذلك عهدت هذا الامر الى رجل كبير الشان فعلى صاحب العقد ان يتفق معه ويكون على حذر فيما يختص بثمنه · وكان ذلك في ٢١ يناير من عام ١٧٨٥

وفي ٢٤ منه قصد الكردينال دي روهان محل الصائغين لشراء العقد كأن الكونتس دي لاموت ابلغته ان الملكة لا يكمل ميلها اليه الا متى ابتاع ذلك العقد لها

فابلغه الصائغان ان ثمن العقد مليون وستمائة الف فرنك فرضي الكردينال بشرائه بهذا الثمن واقترح عليهما ان يدفع لهما عند استلام العقد ٤٠٠ الف فرنك وما بقي من الثمن يدفعه اقساطًا متتابعة في كل اربعة اشهر قسطًا واحدًا الى حين استيفاء الثمن · فرضي بذلك الصائغان ووقعا مع الكردينال على شروط الاتفاق في ٢٩ يناير · وبعد انقضاء يومين اخذا اليه العقد فاراهما صك الاتفاق موقعًا عليه من الملكة نفسها وكتابًا من الملكة تقول

اصل هذه العائلة ايرلندي وربما كانت من جملة العيال التي هجرت ايرلنده في القرن السادس عشر وجاءت الى شواطىء فرنسا الشمالية فاقامت في ديورها ومناسكها · وكان جد روبسبيير مسجلاً فجاء فرع من هذه العائلة واقام في مدينة اراس التي هي مركز من مراكز الاشراف والاكليروس فولد لهذه العائلة اخوان واختان وكانت ولادة الرجل الذي امامنا في سنة ١٧٥٨ ولما بلغ الحادية عشرة توفي ابواه فاصبح في هذا السن كبير العائلة ففهم مقامه منها على صغر سنه وصار يعنى باخوته · وقد درس في مدرسة اراس ثم ارسل الى مدرسة لويس الكبير في باريز فاتمّ دروسه فيها · وكان يقضي اوقاته حزيناً منفرداً لانه بلا عائلة تسلي حزنه وتؤنس وحشته ولما خرج من المدرسة عين قاضياً في محكمة جنائية فرفعت اليه في ذات يوم قضية قتل فحكم على القاتل بالاعدام · ولكنه بعد الحكم بكته ضميره على انه حكم باعدام نفس بشرية وراى ان وظيفته تقضي عليه بذلك فاستعفى منها وجعل نفسه محامياً · فجاءه في ذات يوم بعض الفلاحين وسألوه ان يدافع عنهم في قضية اقاموها على اسقف اراس فنظر روبسبيير في اوراق القضية فوجد الحق في جانبهم فدافع عنهم وربح القضية · وكان سكان اراس ينظرون يومئذ في تعيين نائب عنهم لارساله الى باريز فانتخبوه وبعثوه فاصبح عضواً في المجمع الوطني

فقال جيلبار وماذا عمل منذ ذلك الحين فاجاب كاليوسترو · انه لم يعمل بعد عملاً كبيراً ولكن كفاه انه اشد الاعضاء نصرة للشعب · فانه لما قصد مليار جنرال النساء قاعة المجمع في فرساليا وعرض على اعضائه مسالة المجاعة وما يقاسيه الشعب منها سكت جميع الاعضاء حتى اشدهم جرأة الا روبسبيير فانه نهض وايد طلب النساء

فيه انها ابتاعت العقد · فاطمان الصائغان وسرا بانقضاء هذه المشكلة

وفي ذلك اليوم نفسه (اول فبراير) ذهب الكردينال الى التويلري منشرح الصدر ومعه العقد فقابلته الكونتس دي لاموت ومعها رجل زعمت انه من حراس قصر الملكة قادم لاستلام العقد منه فدفع الكردينال العقد اليها فدفعته الى حارس امامه وعاد الكردينال من حيث اتى

وفي ٢ فبراير ذهب الصائغان الى القصر لمشاهدة العقد في جيد الملكة فوجدا انها لم تتقلده فاستاءا وابلغا ذلك الى الكردينال فقال لهما الكردينال ان الملكة تروم مخاطبة الملك بشأن هذا العقد قبل ان تتقلده لئلا يسالها من اين اتى · ثم اوصاهما بان يبلغا شكرهما الى الملكة على ابتياعها العقد منهما

فقال جيلبار ومن يضمن لنا ان هذا الرجل لا يغير افكاره في المستقبل فقال كاليوسترو ان هذا الرجل سيسمى في المستقبل« الرجل الذي لا يرتشي ولا يتغير» وهو الآن اضحوكة لدى المجمع فانه اذا خطب لا يسمعونه واذا تكلم ضحكوا منه واستهزءوا به · وكل رصفائه الاعضاء يعتقدون انه بليد قاصر لا شان له الا ميرابو فانه يقدره قدره وقد قال لي اول امس« ان هذا الرجل يعتقد ما يقوله ولذلك فهو سيسير شوطاً بعيداً »

فقال جيلبار ولكن قد قرأت خطب هذا الرجل فلم ارَ فيها شيئاً يستحق الذكر · فقال كاليوسترو : كما ان الاعضاء لا يصغون اليه فان الطباعين لا يعبأون بخطبه بل يتصرفون فيها كما يشاؤن · وقد يسميه كتاب الجرائد المسيو (ب) او المسيو (م) لانهم يجهلون اسمه وليس يعلم غير الله ما ينشئ ذلك في نفسه من الحقد والبغض · فان رفاقه الاعضاء يستخفون به والصحافيين يهملونه والاكليروس يبغضه لانه دافع في القضية التي اقيمت ضد اسقف اراس والاشراف يعيرونه بانه تعلم في المدرسة على نفقة المحسنين اليه · وزد على ذلك انه بلا عائلة تسلي نفسه وهو يكره الاجتماعات والملاهي فلا ينفك فكره مشتغلاً بموضوعه · ولذلك تتكاثف في نفسه غيوم الحقد الى ان يجيء ذلك اليوم الهائل الذي تنشأ فيه الصاعقة · وليس يعلم غير الله مقدار الدماء التي سيهرقها هذا الرجل في ذلك اليوم

فقال جيلبار لقد احزنني بريتوس فان لم يسرّني قيصر فانني ربما نسيت الموضوع الذي جئت من اجله الى هذا المكان · فاين قيصر ؟

فمد كاليوسترو اصبعه مشيراً وقال · انظر الى ذلك الشاب الذي يحادث رجلاً لا يعرفه فانه كورسيكي يُدعى بونابرت والرجل يُدعى باراس وسيكون له تاثير عظيم

واصبح الكردينال بعد شراء العقد يعلل نفسه بالوصول الى دست الوزارة · وكان يومئذ مصادقاً لكاليوسترو الذي كان يقيم في منزله فكان كاليوسترو يغريه اشد اغراء فيما يختص بمسالة العقد لعلمه بمصير هذه المسالة

ولما دنا ميعاد الدفعة الاولى جاءت الكونتس دي لاموت الكردينال بكتاب فحواه ان الملكة مغبونة بالثمن فطلب الكردينال من الصائغين انقاص ٢٠٠ الف فرنك من ثمن العقد على ان يدفع لهما في القسط القادم اي في اول اغسطس ٧٠٠ الف فرنك بدلاً من ٤٠٠ الف فرنك فرضي الصائغان · ثم كرت الايام واستحق القسط الاول فرهنت الكونتس دي لاموت جواهرها بقيمة ٣ الف فرنك ودفعتها الى الكردينال فدفعها الكردينال الى الصائغين كفائدة لمالهما الذي تأخر دفعه · فداخل الصائغين ريب من هذه الامور

على مستقبله

فنظر جيلبار الى الرجلين وقال لقد احسنت اختيار قيصر يامعلم فان جبهة هذا الشاب الواسعة جديرة بان يوضع التاج عليها · اما عيناه فانني لم اتحققهما بعد · فقال كاليوسترو ذلك لانه ينظر الى داخل المكان · على ان هذا الشاب ينظر بهما في وجه المستقبل نظرًا بعيدًا

فقال جيلبار وماذا يقول لرفيقه باراس قال انه يقول له انه لو كان هو مدافعاً عن الباستيل يوم هجوم الشعب عليه لما تمكن الشعب من فتحه · فقال جيلبار فليس هذا الرجل اذًا وطنياً مخلصاً · فقال كاليوسترو ان من كان مثله يكون كل شيء · فقال جيلبار بشيء من الجد وهل تعتقد حقيقة ان هذا الضابط الصغير سيكون رجلاً كبيرًا ام انت تمزح · فاجاب كاليوستر بجدة · جيلبار جيلبار كلا لا امزح فانه كما ان ذلك الرجل سينصب في فرنسا آلة القتل التي سيعدم بها الملك ويهدم العرش كذلك سيعيد هذا الشاب ذلك العرش و يبني مملكة اوسع من مملكة شارلمان

فصاح جيلبار مضطربًا فلماذا نسعى اذًا في نصرة الحرية اذا كنا لا نحييها اليوم الا لتموت غدًا · فاجاب كاليوسترو بعظمة ومن قال لك ان كل واحد من هذين الرجلين لا يخدم الحرية خدمة عظيمة احدهما بآلته والثاني بعرشه

فقال جيلبار وكيف يكون ذلك هل ان هذا الرجل اله قادم للعالم لانشاء مملكة السلام فيه

فقال كاليوسترو ان هذا الرجل رجل تجسمت فيه نفس اسكندر وانيبال · اسي

كلها فبعثوا في الحال وابلغوا الامر الى الوزير برتويل

وكان الوزير برتويل معاديًا للكردينال روهان فبعث وابلغ الملكة خبر العقد وذكر لها ما كان في باريز وفرساليا للاشاعات عن مقابلتها الكردينال في الحديقة تحت جنح الظلام من التاثير والتأويل · فصعقت الملكة عند بلوغها هذا الخبر بواسطة الوزير واعلنت انها تجهل كل تلك الامور · ثم طلبت من الصائغين ان يقدما لها تقريرًا مطولاً عن تلك الحادثة فكتبا لها تقريرًا في ٩ اغسطس فلما امعنت الملكة النظر في التقرير ذهبت مسرعة الى الملك واوقفته على ذلك أمر · فبلغ الغيظ من الملك مبلغه فارسل يطلب الكردينال وكان ذلك في يوم عيد الصعود والكردينال متشح بملابسه الكهنوتية استعدادًا للقيام بالقداس في القصر · فاحضره الملك قبل القداس بملابسه الكهنوتية فجاء

انه مهاجم ومدافع معاً · لقد ولد في وسط الحرب وسيعظم بالحرب ويسقط بالحرب · قلت لك انك لا تستطيع تقدير الدماء التي يهرقها روبسبيير في حياته · تخذ الآن هذه الدماء· ضاعفها عشر مرات بل مائة مرة بل الف مرة ومع ذلك فانها لا تبلغ نصف البحر العظيم الذي سيجريه هذا الشاب منها · فانه سيجمع جيوشاً لا يقل احدها عن خمسمائة الف رجل ويحارب في معارك تدوم الواحدة منها ثلاثة ايام ويطلق فيها ١٥٠ الف مدفع

فقال جيلبار وماذا ينتج عن ذلك كله · فقال كاليوسترو ينتج عن ذلك تغيير وجه العالم · فاننا نحن الان ندفن العالم القديم وسيستقبل اولادنا عما قريب عالماً جديداً· وهذا الرجل هو بواب العالم الجديد وسينسب اليه القرن القادم الذي يعيش فيه

فقال جيلبار وماذا يكون اسم هذا الرجل · فقال كاليوسترو انه يسمى الان بونابرت ولكنه سيسمى نابوليون

فاخذ جيلبار يتامل وجه الكورسيكي ويفتكر في الماضي والحاضر والمستقبل · ولم يكن مصدقاً لما قصه عليه كاليوسترو ولكنه كان يفكر فيه رغماً عنه

وبقي ساعة يفكر وهو يجيل نظره في القاعة وعقله شارد ولذلك لم يفطن الى افتتاح الجلسة وصعود خطيب الى منبر الخطابة · وبعد برهة شعر بيد شديدة تضغط على ذراعه فالتفت فلم يجد كاليوسترو ولكنه وجد ميرابو مكانه

وكانت لوائح الغضب بادية في وجه ميرابو · فنظر اليه جيلبار نظرة استفهام عن هذا الغضب· فقال ميرابو اما علمت ما جرى · فقال كلا قال لقد هزءوا بك وبي وضحكوا منك ومني فان البلاط لا يريدني · فقال جيلبار لم افهم كلامك بعد يا كونت · فقال ميرابو

وهو يرتعد ويرتعش · فقابلته الملكة بالعنفوان والكبرياء ونظرت اليه نظر بريئة من الذنب · اما الملك فانه لطف لهجته حين رأى شدة منظر الملكة وقال له اجلس الى المائدة واكتب دفاعاً عنك · فجلس الكردينال يكتب بيد مرتجفة وقد استهل دفاعه بقوله « كنت احسب ان المرأة التي كنت اراها هي الملكة » ولما قرأ الملك كتابة الكردينال قال له « لا اقدر يا موسيو الا ان ابقي شخصك في قبضتي لان اسم الملكة عزيز عليّ فيجب ان اتحقق كل تفاصيل هذه المسالة » يعني انه يريد سجنه · فاخذ الكردينال يتذلل ويلتمس منه ان لا يصعقه بهذه الضربة الفجائية امام جميع الناس الذين كانوا ينتظرونه في الكنيسة فرام الملك اطلاق سبيله فغضبت الملكة لذلك وسالت الملك باكية ان يصون شرفها فطاوعها الملك وكان الكردينال قد سار يريد العودة الى الكنيسة فصاح الوزير

أما سمعت القرار الذي قرروه الان · فقال كلا قال كيف لم تسمعه فهل كنت نائماً · فقال لا وانما كنت اتفكر واتأمل · فقال ميرابو

لقد اقترحت اليوم اقتراحاً مآله انه يجوز للوزراء حضور جلسات المجمع فلم يرضَ الاعضاء المعروفون بالميل الى البلاط عن هذا الاقتراح بل قاوموه وسيقترحون غداً على المجمع اقتراحاً آخر مآله انه لا يجوز لكل عضو من اعضاء المجمع الوطني ان يكون وزيراً · وهكذا يهدمون بامر جلالته ما بنيناه وينقضون ما ابرمناه · ثم رفع ميرابو صوته ومدّ قبضته القوية متهدداً كجبار يناطح جباراً وقال : ولكنني اقسم باسم ميرابو انني ارّد لهم هذه الضربة · فان ايديهم اذا كانت تنقض وزارة فان يدي تهدم عرش مملكة

فقال جيلبار وهل عدلتَ عن الدفاع عن مشروعنا في المجلس فاجاب ميرابو كلا بل سادافع واناضل لانني ممن لا يُدفنون الا تحت الردم والانقاض

قال ذلك ثم نهض وعلى جبهته غضب ينير وجهه كما تنير الصاعقة الغيوم في كبد الظلام · وكان منظره حينئذ هائلاً ومهيباً معاً

وفي اليوم التالي اجتمع المجمع الوطني فاقترح العضو لانجينه « انه لا يجوز لاعضاء المجمع ان يكونوا وزراء » فقام ميرابو وقعد وحمل على هذا الاقتراح حملات شديدة ولكنه سعى عبثاً فان المجمع وافق على الاقتراح باكثرية عظيمة

فلما وافق المجمع على هذا الاقتراح انتصب ميرابو وقال بغضب : انني اقترح ان يزاد على هذا الاقتراح عبارة لا تغير شيئاً منه وهي : « يجوز لكل اعضاء المجلس ان يكونوا وزراء ما عدا الكونت دي ميرابو »

برتو يل بالحرس « ايها الحراس اقبضوا على الكردينال » فاسرع الحراس وقبضوا عليه وارسلوه الى الباستيل

وكانت الكونتس دي لاموت قد سافرت من فرساليا قاصدة المانيا بامر من الكردينال ولكنها لما وصلت الى بار في فرنسا اقامت فيها غير متنكرة ولا خائفة ولما علمت بسجن الكردينال لم تفرّ كانها كانت واثقة بالنجاة بناء على ما تعرفه من البلاط · فالقي القبض عليها في ١٨ اغسطس وُزجت في الباستيل ايضاً · ثم القي القبض على كاليوسترو صديق الكردينال وعلى ريتو دي فيليت عشيق الكونتس دي لاموت الذي كان يكتب لها رسائل الملكة وعلى مدموازل ديسيني او مدموازل اوليفا كما كانوا يسمونها وهي التي كانت تشبه الملكة

فصعق الاعضاء من هذه الجسارة واخذوا ينظرون بعضهم الى بعض · اما ميرابو فانه نزل من منبر الخطابة بخطى الظافر وجميع الاعضاء سكوت كالاصنام ثم خرج بعظمة وكبرياء من قاعة الجلسة

فكان فشله شبيهاً بالانتصار

وقد صدق ميرابو في ظنه فانه ما من احد اسقط مشروعه ومشروع الدكتور جيلبار غير الملك والملكة

الفصل السابع والعشرون

﴿ الملك ومشروع الفرار ﴾

قدوم بوليه

وانما اسقط الملك والملكة مشروع ميرابو لان كل واحد منهما كان يطلب النجاة في الفرار من باريز وكان الملك ينتظر نتيجة رحلة شارني والملكة تنتظر نتيجة مشروع ففرأس تمهيداً لهذا الفرار

غير ان الملك لم يطل انتظاره فان شارني لما وصل الى متز وابلغ الجنرال دي بوليه ارادة الملك بعث هذا الجنرال في الحال ابنه الى باريز لمخابرة الملك وتدبير طريقة لفراره من عاصمته

وكان الجنرال دي بوليه من اقرباء لافاييت فلما علم لافاييت بوصول نجل الجنرال الى باريز بعث يدعوه اليه وهو يجهل بالطبع السبب في مجيئه فقابله الشاب بوليه وجعله يتهم

وفي ٥ سبتمبر من عام ١٧٨٥ احيلت هذه القضية على البرلمان لينظر فيها · وكان خبرها قد ملأ الدنيا بامرها · اما الشعب الفرنسوي فانه كان منتصراً للكردينال على الملكة وقد شاعت يومئذٍ اشاعات كثيرة عنها

وكان تارجه مدافعاً عن الكردينال فاظهر براءته لدى البرلمان واثبت ان الكونتس دي لاموت خدعته بما ابلغته عن الملكة وانها اي مدام دي لاموت هي المجرمة الحقيقية اما الكونتس دي لاموت فانها انكرت مقابلة الحديقة وقالت ان الكردينال وكاليوسترو سرقا العقد وباعاه وانها وزوجها بريئان · وكان الشعب المجتمع حول البرلمان لانتظار الحكم يزيد على ١٠ الاف نفس · وكان ذلك في ٣١ مايو من عام ١٧٨٦

ان السبب في مجيئه الى باريز رغبته في الالتقاء بباريزية يحبها

فانطلى محال هذا الكلام على الجنرال لافاييت

ثم ساله لافاييت اذا كان يرغب في مواجهة الملك فقال الشاب بوليه في نفسه ان التقادير قد ساعدتني ثم أجاب انه مشتاق لمواجهة الملك فعزما في ذلك النهار على مواجهته·

ولما جاءت الساعة المعينة لذلك ذهب به لافاييت الى التويلري فلما دخلا حيتهما الجنود تحية عسكرية وهي لا تعلم انها كانت تحيي في ذلك الوقت نصير الثورة وعدوها لافاييت نصيرها و بوليه عدوها

وقد جعل لافاييت و بوليه زيارتهما الاولى للملكة فلما ابصرت الملكة الشاب بوليه نهضت اليه كابوة وجدت اشبالها بعد ان فقدتها ثم مدت اليه يدها صارخة · هذا انت يا مسيو دي بوليه

وكانت الملكة تجهل ان الملك راسل المركيز دي بوليه فيما يختص بمشروع الفرار فلم يكن ذلك اذًا بالسبب الذي دفعها هذا الاندفاع وانما السبب رؤيتها نبيلاً من نبلاء مملكتها قادماً لزيارتها وعرض اخلاصه عليها في زمن كان الناس يفرون من الملكية و يبتعدون عنها

وقد قالت الملكة ذلك القول دون ان تعبأ بلافاييت او تنظر اليه فلم يرق هذا الامر الشاب بوليه غير انه تقدم بالرغم عنه وجثا على الارض ثم اخذ اليد الممدودة اليه وقبلها باحترام شديد

فانقبض لافاييت هنيهة ثم ابتسم وقال : حقًا يا ابن عمي انه كان يجب عليك ان

و بعد فحص البرلمان جميع تفاصيل القضية حكم ببراءة الكردينال روهان وكاليوسترو و بنفي ريتو دي فيليت الذي كان يكتب الرسائل نفياً مؤبدًا و بسجن الكونت دي لاموت سجناً مؤبدًا و بجلد الكونتس دي لاموت وكيها في كتفيها بحديد محمي دلالة على العار وسجنها في مستشفى السالبتريير

فغضب الملك والملكة لهذا الحكم غضباً شديدًا لانه يحصر الذنب كله في نساء الملكة · فنفي الكردينال روهان الى دير له في اوفرنيا · وقد هاجر من فرنسا في ايام الثورة الى انتهيم وتوفي فيها في عام ١٨٠١ · اما الكونتس دي لاموت فقد نفذ الحكم فيها ولكنها استطاعت الفرار من السالبتريير في عام ١٧٨٧ فوصلت الى لندرا في ٤ اغسطس منه وهناك كتبت

تقدمني انت للملكة لا ان اقدمك انا اليها

فاحست الملكة بما في قول لافاييت فالتفتت اليه لتزيل تأثير ذلك الاندفاع وقالت عفوًا يا جنرال فانني لم ارَ الكونت منذ سنوات طوال ولذلك سررت الان برؤيته

فاجاب لافاييت : ان للملكة يامولاتي ان تظهر عواطفها كما تشاء . فقالت الملكة بل قد اخطأت يا جنرال فاصفح عن خطاءي ولنتصافح الآن على الطريقة الانكليزية او الاميركية

ثم مدت اليه يدها لتهز يده فمد لافاييت يده بيطء وقال انني آسف ياسيدتي لانك تذكرينني دائمًا بالطريقة الانكليزية والاميركية مع علمك انني فرنسوي

وقد ارادت الملكة بقولها « على الطريقة الاميركية » الاشارة الى ما عمله لافاييت في اميركا ايام الثورة الاميركية

ثم جلست الملكة متعبة كأن هذه المحادثة انهكت قواها . وسالت لافاييت هل عندك خبر جديد ايها الجنرال

فاغتنم لافاييت هذه الفرصة للانتقام وقال كم قد اسفت يامولاتي لانك لم تحضري امس جلسة المجمع الوطني . فانك لو حضرتها لشهدتِ مشهدًا مؤثرًا . فلقد حضر الى قاعة المجمع شيخ طاعن في السن ليشكر المجمع والملك فقالت الملكة ومن يكون هذا الشيخ فقال لافاييت . هو كبير الانسانية في هذا الزمان . هو شيخ له من العمر ١٢٠ سنة وقد قدم الى المجمع ووراءه خمسة اعقاب من ابنائه واحفاده ليشكر المجمع على التقرير الذي اصدره في ٤ اغسطس ونحواه المساواة بين جميع بني الانسان . فان هذا الرجل عاش عبدًا رقًا في حكم لويس الرابع عشر ومضى عليه منذ ذلك الحين ٨٠ سنة وهو كذلك فلما تقررت

تاريخ حياتها واودعته من الطعن في الملكة وعزت اليها من الامور ما يكره كل كاتب نقله . وقد توفيت الكونتس دي لاموت في عام ١٧٩١ وذلك ان لصوصًا دخلوا منزلها لقتلها في الليل فالقت بنفسها من النافذة فرارًا منهم فلقيت منيتها

اما العقد فلم يظهر له بعد ذلك اثر . واما ثمنه فقد راح الصائغان وورثتهما يطالبونه من ورثة الكردينال دي روهان على غير جدوى . وقد حطت هذه الحادثة من شان الملكية في فرنسا حطًا شديدًا فكره الفرنسويون ملوكهم بسببها . ولذلك قال كاليوسترو بلسان دوماس انه يفي ديون ميرابو كما وفى ديون روهان اذا كان ميرابو يُحدث له حادثه كحادثة العقد تحط من شان الملكية وتعود بالنفع على مشروعه الجمهوري

المساواة والغي الرق جاء المجمع ليشكره على هذا العمل باسم الاعقاب الماضية والمقبلة

فقالت الملكة وماذا صنع المجمع به · فقال لافاييت· لما دخل هذا الرجل على الاعضاء نهض جميع الاعضاء احتراماً له وجعلوه يجلس و يلبس قبعته وهم وقوف مبالغة في اكرامه

فتنهدت الملكة لانهـا فهمت مراد لافاييت واجابته لتنتقم منه ايضاً · اما انا فانني قابلت شخصاً آخر بينما كان المجمع يقابل ذلك الشيخ· فقال لافاييت ومن هو هذا الشخص يا سيدتي · قالت هو زوجة الخباز فرنسوي المسكين الذي قتلوه ظلماً · وقد وعدتها بان اكون عرابة لولدها بعد ولادتها هذا اذا لم يكن الولد قد مات في بطنها من الخوف والحزن · فاسالك ايها الجنرال هل من مانع يمنع من اقامة حفلة العماد في كنيسة نوتردام·

فاجاب لافاييت · ان هذا الكلام يا سيدتي يجعل سامعيه يظنون انك اسيرة في قصرك وقد انتشرت هذه الاشاعة كل الانتشار فرجائي يا سيدتي ان لا تغفي ذلك وان تقنعي الملك بالعودة الى التنزه والصيد ليعلم الناس في فرنسا وفي اوروبا ايضاً فساد تلك الاشاعة ·

فابتسمت الملكة هنا ابتساماً دل على عدم تصديقها الكلام الذي سمعته واما لافاييت فانه اردف بقوله · واما مسالة العماد فالامر فيها وفي كل الشؤون لجلالتك · فمتى شئتِ اختاري الكنيسة والوقت واصدري اوامرك تنفذ في الحال

فابتسمت الملكة للجنرال وللشاب بوليه ابتسام الوداع فخرجا من لدنها وقصدا منزل الملك

وكان لويس السادس عشر حينئذ في معمل الحدادة فلما بلغه قدوم لافاييت بعث يرجوه ان يوافيه الى هذا المعمل · ذلك ان الملك خصص قاعة من قاعات التويلري وجعل فيها كل آلات الحدادة من السندان والمنفخ فنازلاً لانه كان شديد الولع بهذه الصناعة كما تقدم

وكانت هذه القاعة قائمة فوق القاعة المخصصة بنومه

فلما وصل لافاييت وبوليه الى باب المعمل سال الحارس بوليه عن اسمه ليبلغه الى الملك مع اسم لافاييت فاجابه لافاييت ابلغ الملك حضوري وانا اقدم رفيقي الى جلالته

وكان الشاب بوليه حينئذ كثير الافتكار في المحادثة التي دارت بين لافاييت والملكة لانه لم يلحظ من كلام الملكة انها عارفة بالسبب الذي جاء من اجله ولم تظهر له منها حركة ولا اشارة في هذا الموضوع· فدخل الشاب مع لافاييت على الملك وهو يتاهب لملاحظة كل

حركات الملك وسكناته

ولما وقعت عين الملك على لافاييت قال له ضاحكاً : اعذرني ايها الجنرال لاني استقبلتك هنا . ولكن الحداد يؤكد لك انه مسرور بزيارتك معمله . وقد كان احد الفحامين يقول لجدي هنري الرابع « ان الفحام سيد في محله » اما انا فاقول لك انك سيد في محل الملك ومحل الحداد ايضاً »

وكان في هذا القول اشارة الى سلطة لافاييت العظيمة في ذلك الزمان فانهم كانوا يسمونه « ملك الملك » رمزاً الى ان الملك لم يكن يستطيع ان يعمل عملاً لا يريده لافاييت

وكان الملك حينئذٍ وراء مائدة العمل وامامه المبارد وآلات الحدادة وهو بلباس العمل ويداه ملطختان بآثار الحديد الذي كان يعالجه في يده

فاجابه لافاييت : انني حيثما تشرفت بمقابلة الملك سواء كان ذلك في معمل الحدادة او في قاعات القصر فانه يبقى دائماً ملكي وابقى دائماً خادماً لجلالته

فقال الملك نعم وانا لا اشك في ذلك ايها المركيز

وقد كان الملك يلقب لافاييت مركيزاً مع ان لافاييت كان قد تنازل عن هذا اللقب كما تنازل يومئذ جميع انصار الشعب والحرية عن القابهم ومراتبهم

ثم سال الملك لافاييت هل غيرت ياورانك ايها الجنرال فاني ارى معك ضابطاً جديداً

فاجاب لافاييت ان هذا الشاب يامولاي هو الكونت لويس بوليه نجل المركيز دي بوليه وقد جئت لاقدمه لجلالتكم

فاجفل الملك اجفالاً خفيفاً شعر به الشاب ولكن لم يشعر به لافاييت ثم قال . آه . هذا انت يامسيو دي بوليه . اعذرني لانني لم اعرفك ايها الكونت وقل لي هل فارقت متز منذ زمن طويل

فاجاب الشاب منذ خمسة ايام يامولاي

وقد علم الشاب من سؤال الملك « هل فارقت متز منذ زمن طويل » انه يقصد بذلك سؤاله هل التقيت بشارني وعرفت منه سبب رسالته . فاجابه جواباً فهم منه الملك كل شيء وهو « فارقتها منذ خمسة ايام » اي انني حضرت وصول الكونت شارني اليها وعلمت سبب سفارته

فاصبح الملك والشاب منذ هذا الحين يتخاطبان بلغة سرية يفهمانها ولا يفهم لافاييت منها شيئاً .

ثم ان لافاييت سال الملك عن الشيء الذي يصنعه في يديه فاجاب الملك انني اصنع قفلاً من اصعب الاقفال . وقد اتعبني جداً حتى انني لا شك في انني استطيع اتمامه وحدي . وذلك لان هذا النوع من الاقفال أصعب الانواع كلها . فكم كنت اتمنى ان يكون الآن المعلم « كامين » عندي ليريحني منه . فقال لافاييت ولماذا لا يجيء المعلم كامين يا مولاي . فضحك الملك وقال لانه يخشى ان يُساء الظن به اما علمت ايها الجنرال ان الدنو من الملك في هذا الزمان صار مدعاة الى اساءة الظن والتهمة . وفضلاً عن ذلك فان حراسك يفتشون الواردين الى القصر والصادرين عنه فهو يخشى حين دخوله او خروجه ان يفتشوه فيحسبوا المبارد التي تكون في جيوبه خناجر وهناك المصيبة الكبرى . ثم ضحك الملك ضحكاً لطيفاً

فقال لافاييت انني اذا شددت كل هذا التشديد في حراسة الملك يا مولاي فانما اقصد بذلك القيام بواجب عليَّ لانني مسئول عن حياة الملك لدى فرنسا بل لدى اوروبا كلها . اما فيما يختص بالرجل الذي يعنيه الملك فمتى صدر امره بادخاله الى القصر ينفذ امره في الحال

فاجاب الملك اشكرك يا مسيو دي لافاييت فلا حاجة للاسراع في ذلك وانما احتاج الى هذا الرجل بعد بضعة ايام فقط . وهو يقيم في فرساليا في شارع الزرزفوار فمتى احتجت اليه بعثت في طلبه

ثم ان الملك نظر الى الشاب بوليه نظرة خصوصية كأن معناها « فتش عن هذا الرجل وجئني به » ففهم بوليه من نظرة الملك معنى كلامه فاغمض عينيه مشيراً الى انه قد فهم الكلام

وبعد ذلك سأل الملك الشاب بوليه هل انت عازم على الاقامة وقتاً طويلاً في باريز ام انت عائد الى ابيك . فاجاب الشاب انني ساقيم في باريز بضعة ايام يا مولاي ثم اقصد فرساليا لزيارة جدة لي تقيم في شارع الزرزفوار فيها وبعد ذلك اعود الى باريز لمقابلة شخص انتظر اوامره ثم اسافر الى متز

فلما قال الشاب ان عمته تقيم في شارع الزرزفوار في فرساليا حيث كان يقيم المعلم « كامين » تحقق الملك ان الشاب فهم كلامه حق الفهم

فابتسم له الملك وودعه مع لافاييت فخرج الرجلان من لدنه · وبعد خروجهما قال الملك في نفسه « لقد فهم الشاب مرادي فبعد بضعة ايام سيانيني المعلم كامين ليساعدني على وضع هذا القفل السري في الخزانة السرية »

الفصل الثامن والعشرون

مشروع الفرار الثاني

والايدي السرية

ظهر من الفصل المتقدم ان المشروع الذي اعده الملك للفرار من باريز قد دخل في دور العمل بعد اذ كان في موضع البحث والنظر · بقي المشروع الثاني الذي هو مشروع الملكة وهذا اوان البحث فيه

في مساء ذلك اليوم الذي قابل فيه الملك لافاييت وبوليه حدث حادث مهم في منزل حقير قذر في الطبقة الاخيرة من دار قائمة في حي الجويفري في باريز · وبيانه ان رجلاً كان جالساً في ذلك المنزل يكتب وراء مائدة وامامه امراة في الخامسة والثلاثين من العمر تفكر في امور الدنيا وغلام صغير ياكل قطعة من الخبز · وبعد هنيهة رمى الولد الخبز من يده وقال لامه · اماه لا اريد خبزًا وانما اريد قضيب سكر · فالتفتت الام بغضب الى الرجل الذي كان جالساً الى المائدة يكتب وقالت له · اما سمعت طلب ابنك فانه يريد قضيب سكر

فمد الرجل يده الى جيبه كانه يروم ان يتناول منها شيئاً ثم انه اعاد يده عن جيبه قبل ان تصل اليها لعلمه ان جيبه فارغة · وبقي مكباً على الكتابة

فصاحت به المراة بغضب اشد ما لك لا تسمع · فالتفت الرجل الى الغلام وقال له انتظر الى الغد فاعطيك ما طلبت · فاستشاط الغلام غيظاً واخذ يبكي ويصيح قائلاً بل اريد قضيب سكر اليوم اليوم

فانتهره الاب وقال له اصمت والا قمت وضربتك · فنهضت المراة كاللبوة وقالت جرب واضربه اذا استطعت ايها الرجل السكير لاريك كيف يكون الضرب

فقال الرجل ولكن ما العمل يا مدام اوليفا فانني لا املك الآن فلساً واحدًا فلينتظر الى الغد فانني قد قلت لك انني ساصبح غد او بعد غدًا صاحب ملايين · فازداد الولد

بكاء وطلباً لقضيب السكر فمدت امه يدها الى جيبها واخرجت منها قطعة صغيرة من النقود وهي تتمتم وتدمدم ودفعتها اليه فاخذها الولد وهرع ليبتاع بها قضيب السكر

ولما خرج الولد التفتت المراة الى الرجل وقالت له ما اقل عقلك واكثر وهمك هل تعتقد حقيقة انك ستربح غداً ملايين . فقال الرجل اذا كنت لا تصدقين ذلك فغداً ترين . قالت وما هذا العمل الذي سيرفعك في يوم واحد من الفقر الى الغنى فقال غداً ترين فتنفست المراة الصعداء وقالت آه لو كان ريشيلو لم يمت بعد . فقال ماذا تقولين قالت ولو كان الكردينال روهان لم يخسر جميع ماله . قال ما هذا الكلام . قالت ولو كانت مدام دي لاموت لم تفرّ الى انكلترا . قال ماذا تقولين . قالت اقول انه لو كان هؤلاء الذين ذكرتهم لا يزالون كما كانوا لما احتجت ان اقاسم واحداً تعيساً مثلك شظف العيش بل كنت قادرة على كسب المال بقدر ما اشاء

وكانت هذه المراة هي المدموازل ديسينيي التي كانت تدعى مدام اوليفا وهي الفتاة التي كانت تشبه الملكة والتي قابلت الكردينال دي روهان في الحديقة وهو يظن انها الملكة . راجع ما ورد عنها في « عقد الملكة » في هامش الرواية في هذا الجزء

اما الرجل فهو زوجها المسيو دي بوزير الذي كان غنياً و بذر ماله

فلما سمعها تتمنى ذلك التمني ضاق صدره فصاح بها . ولكن قلت لك انتظري الى الغد فاجيئك بملايين

فضحكت اوليفا وقالت ارني معك عشر قطع من الذهب اولاً لاصدق بوجود الملايين فقال بوزير ولكنني اقول لك ان العناية ستعطينا . فازداد ضحك اوليفا وقالت انت اتكل على العناية فابقَ متكلاً عليها. قال وهل تنكرين العناية ايضاً . هل انت جاحدة

فرفعت اوليفا كتفيها دلالة على عدم اهتمامها بهذا السؤال

فقال بوزير اذاً انت من راي المسيو فولتير الذي ينكر العناية . فقالت اوليفا حقاً انك ابله يا بوزير

فهز بوزير راسه وقال اما انا فانني لا انكر العناية ابداً . بل اعتقد انها اذا ارادت سعادة انسان اعطته من غير حساب بواسطةٍ ومن غير واسطة . وهكذا اعتقد ان ابني الذي نزل الان ليبتاع قضيب سكر قد يعود الينا وفي يده كيس طافح بالذهب اذا كان الله يريد ذلك

وما اتى بوزير على كلامه حتى دُفع الباب وظهر الغلام صارخاً. اماه اماه معي ذهب

فاسرعت المرأة والرجل فابصرا في يمينه قطعة ذهب وفي يساره قضيب سكر فسالته امه من اين جئت بالذهب فقال رآني رجل عند بائع السكر واعطاني اياه

ولم يتم الولد عبارته حتى ظهر في الباب رجل حسن اللباس مهيب المنظر فسلم ببشاشة قائلاً . مساء الخير يا مدموازل نيكول . مساء الخير يا موسيو دي بوزير

فصاح الولد هذا هو الرجل الذي اعطاني الذهب

اما الرجل وزوجته فانهما صاحا من فم واحد . الكونت كاليوسترو . ما جاء به

وكان هذا الرجل هو كاليوسترو نفسه . واما سبب قدومه الى هذا المكان فهو سر من الاسرار التي سيرد الكلام عنها والتي كان لها تاثير عظيم على مشروع الملك والملكة

تم الجزء الاول من « وثبة الاسد »